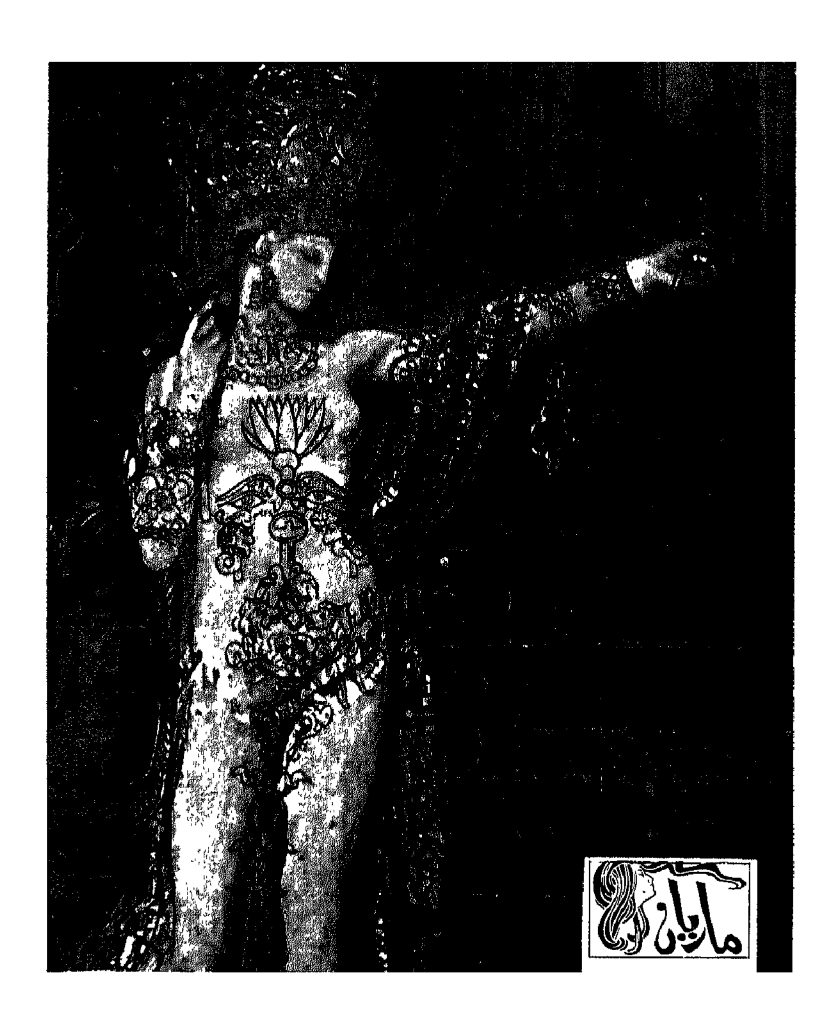
غوستاف فلوبير

ثلاث حكايات





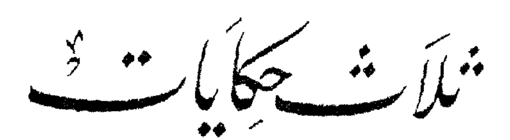


النص كاملاً

مارون

روائع الأدب والفكر منقولة إلى العربية

غوستاف فلوبير



ترجمة
حسين كيلو

عويدات

الطبعة الأولى ١٩٨٣

ثلاث حكايات

تقديم
ميشال تورنيه

هذا الكتاب الصغير في حجمه، والذي هو آخر مصنف قام بتأليفه غوستاف فلوبير، يعتبره البعض رائعة من روائعه العديدة. بل أكثر من ذلك، يعتبره بعض النقاد العمل الوحيد الذي حقق الكاتب خلاله نجاحاً لا يمكن أحداً أن يجادل فيه أو يماري. وإذا أخذنا في الاعتبار أهمية الروايات العظيمة السابقة على هذا المؤلف، والآمال المعلقة عليها، فإن الحكم بأن هذا الكتاب رائعة من الروائع الخالدة لفلوبير هو حكم يحمل ظلماً وجوراً. بل وإنه في الغالب الأعم، يتسم بسوء النية بالمقدار الذي يتسم به الحكم على مصنف برغسون « الضحك » بأنه رائعة من روائعه، ويجعل من « بالود » لاندريه جيد تحفة من تحفه. وإننا لننحدر بخبث ومكر بمنزلة كاتب من الكتاب الى الدرك الأسفل عندما نبالغ في تقدير أعماله ونجعل من أكثر مصنفاته تواضعاً حالة استثنائية نادرة.

على أنه مما لا مراء فيه ولا جدال أن « ثلاث قصص »، رغم اختلاف الواحدة منها عن الأخرى ، فيها خطوط مشتركة تميزها عن الأعمال الأدبية السابقة لفلوبير بشكل كبير .

هذا الابتكار وتلك الاصالة الأدبية اللذان يتمتعان بهما فلوبير يظهر بشكل أكثر بروزاً كلما اقتربت كل قصة من هذه القصص، بموضوعها وعصرها الذي تقع فيه، من احدى روايات فلوبير العظيمة التي سبقت هذا المصنف.

ثم إنه لأمر واضح أن القصة الأولى من هذه القصص الثلاث والتي تحمل عنوان: « قلب طاهر »، تقترب بموضوعها المعاصر من رواية « مدام بوفاري »؛ بينما الأسطورة وعنوانها: « القديس جرمان لوسبيتالييه » تذكرنا برواية عنوانها: « تجريب القديس أنطوان »، في حين أن القصة الثالثة: «هيروديا» ليست منبتة العلاقة أو مقطوعة القربى عن قصة « سالمبو ». وإن المرء لا يقول شيئاً، بل إنه ليتبنى منطق الغباء والسخف عندما يقول إن فلوبير قادته حكمته في كل قصة من هذه القصص الى أن يزيح عن كاهله استعماله الضخم للوثائق ؟ هذا الاستعمال الذي يربك الرواية العظيمة التي تتناسب وهذه القصة. كما قادته حكمته الى أن يحول نافلة الكلام وحشوه الى مجرد رسم وصورة.

وإن إعادة التشكيل الدقيق الذي قام به فلوبير وهو

يتصدى لتأليف رواية « مدام بوفاري » أو « سالمبو » أو حتى روايته « التربية العاطفية » عملية إعادة التشكيل هذه لاتنفصل عن الواقعية الخاصة لهذين المصنفين، بل وإنها لتسهم بشكل أساسي في صنع عظمتهما.

ومن المؤكد أنه ليس محض صدفة أن تكون أعلى هذه الروايات منزلة وأرفعها قدراً، هي في الوقت نفسه أكثرا نصيباً من الوثائقية. وأنا أقصد بكلامي هذا رواية « سالمبو » ولكن المجال لا يتسع هنا لتبيان هذا الأمر.

ومما لا شك فيه أن الوحي والإلهام يكونان عند المرء أعظم عندما ينهضان فيزيدان مقدار الأمل وبريقه، هذا الأمل الذي يهيمن على هذه القصص الثلاث والذي يتناقض والتشاؤم المطلق الذي تتردى فيه أعماله التي سبقت هذا العمل. وإنه لمن المناسب أيضاً أن يصار الى تصحيح فكرة الأمل، هذه الفكرة السطحية الساذجة التي لا تسمح لنا بالحديث عن التفاؤل، ومن باب أولى فإنها لا تسمح لنا بالحديث عن النهاية السعيدة.

وإن « فيليسيتيه »، الخادمة الأمينة للسيدة « أوبان »، كأنها تلبس لبوساً من الماس بما يتمتع به قلبها من البراءة والطهر. ولا شيء يمكن أن يرجح على هذا اللبوس الذي لا يرى بالعين المجردة، لا شك ولا السخرية ولا الحساب. وإننا لنرى

ذلك في وضوح وجلاء عندما يتجرأ « بوريه » الحقير على السخرية من جهل فيليسيتيه. فضحكة فلوبير تقع عليه وقوع البصاق من فرط احتقاره له. ومن جهة اخرى فإن « بوريه » عوقب فيما بعد عقاباً نكراً عندما ألجىء الى الانتحار بعد اكتشاف اختلاساته وسوء ممارسته لوظيفته. فلقد حكم عليه القدر بميتة شائنة لأنه سخر من « فيليسيتيه ». ولكن طهارة فيليسيتيه لا تستبعد حدوث تطور بارز هو عبارة عن قصة إنسانية حقيقية تعبر عن أزمات وولادات جديدة. انها تحب على التوالي أحد الرجال، ثم فرجيني، فالبنت الصغيرة التي أوكل اليها أمرها، ثم ابن اختها فيكتور، وأخيراً معلمتها، على أن الأخيرة لم تكن شخصية محببة. ولكن الخيانة والموت يعصفان بكل أصناف ذلك الحب الترابي الذي لا يعرف المثالية ولا السمو. وفي كل مرة كانت فيليسيتيه تقع في الحيرة والتردد ثم تبكي وتثور، لكنها في النهاية تعود الى كنف الحياة وأحضانها. وفي الحقيقة كان ذلك حباً من صنف آخر ومن طراز مختلف؛ لقد كان حباً روحانياً صافياً توج حياتها المتواضعة. ولكن، هنا أيضاً، نجد تطورات وتحولات ومآسي وتجليات.

فالببغاء لولو لا تقطع ما اتصل من غراميات فيليسيتيه، ذلك بأن هذه الببغاء تبدو كأنها تقمص غامض لشخصية

فيكتور. ذلك البحار الصغير الذي اختفى في أحد البلدان الأجنبية. ثم تنشأ فترة من الصداقة الحميمة بين الفتاة العانس والببغاء. لكن هذه السعادة توقف قطارها بصورة قاسية أليمة باختفاء لولو الغامض. هذا الحادث مهد السبيل أمام فيليسيتيه لانقلاب ردها الى سمو عواطفها وأحاسيسها. فالبحث التائه الحائر الذي كرست له نفسها ووقفت عليه اهتمامها، ذلك البحث الذي لن تجد من دونه مرداً أو ملجأ، يشبه هلع الصوفي وعذابه حينما يكله الله الى نفسه ويخذله تاركاً إياه في حلكة الليل البهيم. وتعود لولو الى الظهور فجأة كما اختفت فجأة. وتنشأ أزمة جديدة أخطر عندما يموت هذا الطائر . ولكن، وبعد فترة اختبار طويلة لا يجب الخوف من تشبيهها بالسقوط في الجحيم، ذلك السقوط الذي سبق ان مهد لقيامة السيد المسيح ـ بعد هذه الفترة يعود الطائر ملفوفاً بالقش فوق غصن، وهو يعض على جوزة ذهبية. إنها فاتحة مرحلة من السمو الذي بلغ ذروة سامقة لا يعلى عليها. هذا السمو يظاهره كثيراً التماثل بين لولو والروح القدس، هذه المشاكلة التي ترمز اليها صورة دينية تتجسد في حمامة مرقطة. وإن انتصار فيليسيتيه يتمثل في إلحاقها لولو بمذبح خميس الجسد.

وتموت فيليسيتيه أثناء الاحتفالات بهذا العيد الذي أصبح بفضلها عيد لولو. وتتصاعد سحب كثيفة من البخور نحو الطائر

الملتفع بالقش. ويركع جمهور من المؤمنين أمامه بخشوع.

وحيث إن الامبراطور أدريان فقد سميره ومحظيه البيتيني الصغير أنطونيوس، فقد أسس مدينة أنطونيو سبوليس إكراماً له، وأقام له معبداً في بلدة مانتينيه، كما أقام له ألعاباً خاصة وفاء لذكراه. وبالإضافة الى ذلك ملأ الامبراطورية بصور أنطونيوس وبوأه مقعداً بين الكواكب والنجوم.

وإن للكتابة وظيفة، سواء أكانت شعراً أم نثراً. هذه الوظيفة ليست العلاقة مقطوعة بينها وبين عملية التأليه العام. فالكاتب يفرض بالقصيدة أو الرواية على عبادة الجماهير ما يوجد في حياته الخاصة من حرارة العواطف وما يكتنفها من أمور خاصة جداً، ولربما أقلها حظاً من القابلية للبوح والاعتراف.

وقصة الببغاء لولو التي ارتقت الى منزلة الروح القدس، والتي رشحتها خادمة جاهلة عانس لأن تحظى بمشاعر الاجلال والتعظيم لدى الفلاحين والبورجوازيين في منطقة بون لوفيك، قصة الببغاء هذه مثالية للبرهنة على مصداقية هذا الاعتبار. وإن آثار أكثر من مؤلف واحد، بدءاً من موريس سيف، وانتهاء بجان جونيه، لها علاقة بهذا النموذج.

وإن أسطورة القديس جوليان لوسبيتالييه » هي القصة التي لها النصيب الأوفر من البقاء في منأى من واقعية فلوبير، من بين قصصه الثلاث التي نحن في صدد التقديم لها.

ففي القصة التي بعنوان « قلب طاهر » يلازم الوهم الواقع بإلحاح يزداد باطراد، ولا ينتهي إلا باللجوء الأعلى، ألا وهو موت البطلة الشاهدة التي يستحوذ عليها هاجس إلهي. ويلزم لولو قدر أكبر من هذا الهاجس حتى تبسط أجنحة الروح القدس « بار قليط » على الانسانية المستهامة.

وفي المقابل ففي القصة التي عنوانها « هيروديا » يبدو الواقع التاريخي ملازماً لوجود السيد المسيح، وهو في جو من الجلال بسبب هذا الوجود. يبدو ذلك في أقل تفصيلاتها أهمية. وعلى العكس من ذلك، فإن قصة جوليان تدور على صعيد خرافي أسطوري. وإذا كان للقارىء أن ينسى ذلك فإن الملامسة الثابتة للعجيب والرائع تأتي لتذكره به.

مثل هذه الاشارات والنذر التي تتسم بالتناقض والصدق في آن معاً، تبشر بمصير جوليان الذي يجمع بين الروعة والندرة. وإن هذه الاشارات لتبشر بالجو الحالم الذي يسبح فيه أكثر من مشهد في القصة من مثل (المطاردة اللعينة) أو إنها تبشر بتلك المبالغات الملحمية من مثل (هذه المناخات الحارة الى درجة أن الشعر فيها يشتعل من تلقائه فيصبح كالمشاعل المضيئة) وانها لتبشر بصورة خاصة بإصبع الله التي توجد في كل مكان من الكتاب، هذه الإصبع الإلهي التي توجه مصير جوليان الوجهة التي تريدها.

ولكن أساس قوة هذه القصة يأتي من مهارة خاصة تنسجم مع سياق خاص ربما كان نسيج وحده في التاريخ الأدبي الذي يعتمد على التوالي على اقتباس فعاليته الشعرية والشعورية من خرافة تقليدية تارة، وخرافة أخرى غيرها تارة اخرى، تذكر بشكل محرف تحريفاً دقيقاً لا يمكن معرفته والكشف عنه، بيد أنه يسمح لنا باستشفاف ما يتسرب عنه مما يشي به ويفضحه.

وهكذا، فإن جريمة اغتيال جوليان لأبيه وأمه في سرير الزوجية الخاص بهما، تلك الجريمة، التي تنبأ بها والتي أوجس منها خيفة وهرب منها هائماً على وجهه سنوات طويلة، تذكرنا بلعنة أوديب التي تختلف عنها هذه القصة بشكل أساسي. وكذلك في ما بعد، فإن جوليان، وقد انحنى فوق عين ماء، ينظر الى نفسه ويترك فكرة الانتحار جانباً، وهي الفكرة التي كان يألفها شيئاً فشيئاً، لأن وجه العجوز الذي كان يراه في الماء هو وجه أبيه. إنها واقعة مدهشة تتضمن اتجاهاً مضاداً للنرجسية والأوديبية.

وأخيراً، فكيف لا نرى في المشهد الأخير: « مضاجعة الأبرص »، إنقلاباً خارقاً في مفهوم العمل الجنسي، وهو عمل اقترف بالدرجة القصوى من العفاف؟ إنه الحب بدافع الاحسان، حوّل الحب الشهواني رماداً.

وتبقى نشوة الجماع، وهي ذروة اللذة الجنسية المحمولة

الى درجة من الطهر والمثالية والاجلال، والى درجة من القوة يفهم المرء معها أن اللذة الجنسية الشهوانية ليست سوى ظل باهت ضعيف إذا ما قورن بالعناق الروحاني الذي تحظى به النفس من خالقها.

إن الترتيب الذي وضع فلوبير بمقتضاه قصصه الثلاث، لترتيب لافت للنظر. فَلِمَ السير صعداً في تيار الزمان بدلاً من اتباع التسلسل التاريخي؟ ربما لأنه كلما اقتربنا من منابع حضارتنا، رأينا الفجوة بين الواقع والخرافة تضيق بانتظام. وإن فيليسيتيه بتحويلها طيرها الببغاء الملفوف بالقش الى الروح القدس، إنما تقوم بمحاولة فيها من السخرية بقدر ما فيها من الجنون. وربما ليست هي بحاجة الى أكثر من ذلك لتصبح صوفية في بون لوفيك في منتصف القرن الماضي.

فالرائع العجيب الذي يسحقه الواقع بثقله وحدوديته، لايمكنه أن يظهر إلا بفعل قوة بطولية قاهرة.

وفي المقابل، فإن قصة هيروديا تختلط بأصل المسيحية ذاته. وإن أضواء الزجاج التي تلف أسطورة القديس جوليان، أضواء لا فائدة منها، ويستطيع المرء أن يتمتع بواقعية كمالية مترفة دقيقة فيها تفاصيل مبتذلة كالواقعية التي توجد في قصة «قلب طاهر»، لأن هناك، وفي الخلفيات البعيدة منها شبح يسوع.

فهيروديا هي الوجه الآخر للأناجيل، وهي أصل يسوع، ولكن من وجهة نظر الأقوياء التاريخيين الذين تعاقبوا في أزمنة وأمكنة مختلفة. وإن القضية لتتعلق بشكل أكيد بمصير القديس يوحنا المعمدان. ولكن هذا القدر يتحرك ضمن إطار الصيغة السلبية القائلة: « لكي يزداد هو، يجب أن أنقص أنا »، بحيث أنه لا تبدو لنا زيادة يسوع إلا من زاوية نقصان القديس يوحنا المعمدان. وإن الخطوط الباهتة للقصة الثالثة هي ملامح قوة خرافية لا يمكن الوقوف في وجهها. وتأخذ هذه الخطوط قيمة لا نظير لها كما في الحال بالنسبة الى بعض اللوحات التي تمثل أشياء منزلية اكتسبت قدراً كبيراً من السمو والتجلي بفعل النور الذي يلامسها والذي يصدر عن كوة من الكوى، أو يكون مصدره الشمس الآفلة. فسالوميه التافهة الجاهلة تزأزىء وتوشك أن تتحرك شفتاها بالعبارة التي ستقرر مصير المعمدان.

لقد نسيت اسم لوكانان. ومن غير شك، ففي الجملة الأخيرة للقصة: « هذا الرأس البالغ الثقل الذي يجب أن يحمله الرسل الثلاثة بالتناوب »، في هذه الجملة تدوي الصدمة النابعة من التفصيلات المبتذلة الغثة ومن العظمة الخرافية الأسطورية، تدوي بكل ما فيها من عنف وفعالية.

كان فاليري يرثي السلبية والعجز في القديس انطوان (انطوان التجربة) « فإن ردود فعله واستجاباته تتسم بضعف

يثير الحيرة ـ حسب تعبير الكاتب ـ فإنه لا يستسلم ولا يبدي مقاومة، ولكنه ينتظر نهاية الكابوس الذي ربما لم يعرف خلاله إلا أن يتعجب من وقت الى آخر ».

« وصحيح أن فاليري يضيف قائلاً بين قوسين: ربما يكون تصرفه على هذا النحو « أكثر صحة » أي أكثر مشابهة لمعظم الرجال؟ ألا نعيش نحن حلماً مخيفاً بما فيه الكفاية » حلماً غير معقول البتة، وماذا نصنع؟ ». لكن فاليري يخطىء من غير شك عندما يأسف لكون هذا النفاق المقيت لا يستدر من أنطوان أجوبة تتناسب ومقدار هذا النفاق. وفي حالة« المسيح الذي جربه الشيطان» فإننا نجد هذا الخلل نفسه وعدم التناسب، ولكن هذه المرة في اتجاه معكوس:

إن أجوبة المسيح لأجوبة فخمة. وإن الوساوس والمغريات التي تتصدى لها هذه الأجوبة بقوة، تبدو لنا بالمقارنة معها هزيلة وغير جديرة بـ « أمير الظلمات ». ومن الأفضل لأنطوان أن يقوم بعمل ما من أن يرد على المسرحية التنكرية. وهكذا نستطيع أن نضع في مقابل هذا البطل شخصيات

تمثل دوراً حاسماً في هذه المسرحية التنكرية، أو حتى شخصيات تُستنبط هذه المسرحية منهم. ومنذ ذلك الحين، فبدلاً من أن يقفوا في الحيرة والتردد ويصيبهم عيد مرفع غريب بالدهشة ـ حسب رأي السيد تست، وهو يردد هذه الكلمات

في صلاته، فإنهم يشتركون وهم نصف واعين ونصف متواطئين في صنع مصيبة ليست سوى مصيرهم بالذات.

وبهذه النبذة عن المصير يتميز الشخوص الثلاثة الأساسيون في القصص الثلاث عن غيرهم من أبطال ملهاة فلوبير. ففيليسيتيه تأخذ على عاتقها تحويل لولو الى الروح القدس، والقديس جوليان يقتل والديه ليدخل قسراً قدراً يتم على يدي المسيح. وهيروديا بجعلها لوكانان يموت، فإنها تسرع عملية مجيء المسيح. وبالمقارنة، فإن « مدام بوفاري » و « سالمبو » و«القديس أنطوان» هي نفوس تطفو طوال فترة عمرها على سطح مياه مستنقع اللامعقول قبل أن تبتلعها مياهه. فلا وجهة لهم ولا إنجاز يتحقق على أيديهم في قصتهم التي تثير الرثاء. فإذا ذهبوا دون أن يفهموا فليس يعني ذلك نقصاً في ذكائهم، ولكنه يعني أن لا شيء هناك ليفهموه.

والذين يقولون ان فلوبير تغلب في « القصص الثلاث » على التشاؤم الذي يتجلى في ما سبق هذا المصنف من المؤلفات، هم الحق في ذلك.

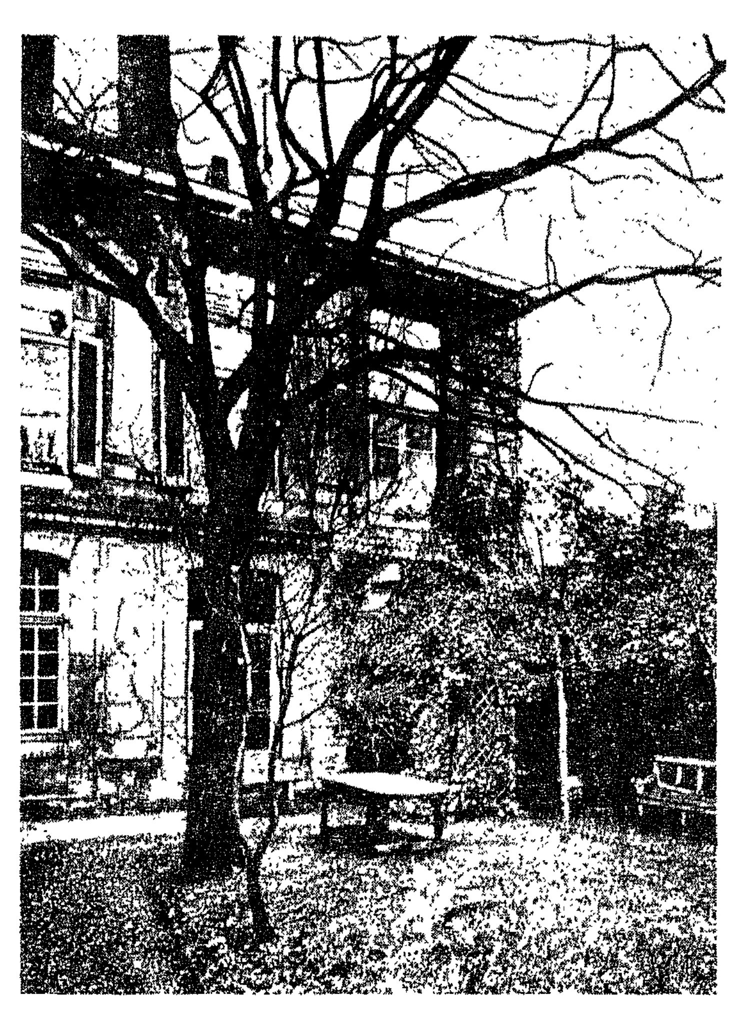
ولكن لا يجب التوقف عند فكرة الأمل، تلك الفكرة الضعيفة والتي لا تفي بالمطلوب في هذه الحياة التي تمور بالفواجع موراً والتي يبدو فيها أن كل شيء قد أملته ضرورة ما ورائية.

وإذا كان التشاؤم هنا قد تم تجاوزه، فإن ذلك حصل لأن كل بطل من أبطال هذه القصص هو صانع تاريخه الشخصي، أو أنه المشارك في صنع التاريخ. وذلك لا ينفي قط أن يفاجئهم هذا التاريخ أو يصدمهم أو يجرحهم. ولكن هذه المفاجأة وهذه الصدمة وذلك الجرح يكون كل واحد منهم هو الذي أصاب به نفسه، ويكون تقريباً بمثابة القلق الذي يعتري الشباب اليافع أو الفتاة التي في ميعة الصبا عندما يواجه كل منهما تفتحه في سن المراهقة.

وفي الإمكان التعبير عن الفكرة عينها وبشكل أكثر ابتساراً عندما نلاحظ أن وجود الله هو الخط المشترك في القصص الثلاث، مع ملاحظة التباين الكبير في ما بينها، ومع ملاحظة أن التناقض الظاهري الالهي ـ حسب تعبير هيغل ـ ليس سوى التوفيق بين الضرورة والحرية.

ميشال تورنيه

عضو أكاديمية غونكور



حديقة أوتيل ديو ، المستشفى الذي ولد فيه فلوبير وكان والده رئيس أطباء فيه

قلبٌ طـــاهرٌ



لويز كوليه ، التي ألهمت فلوبير عدة قصص

١

النساء البورجوازيات في منطقة بون لوفيك غبطن طوال نصف قرن من الزمان السيدة أوبان على خادمتها فيليسيتيه.

فمقابل أجر زهيد لا يتعدى المئة فرنك في السنة، كانت فيليسيتيه تطبخ الطعام، وتنظف البيت، وتخيط الثياب، وتغسلها وتكويها، وتحسن ربط الجواد وعلف الطيور ومخض الزبدة. وبعد هذا كله بقيت هذه الخادمة أمينة مخلصة لمعلمتها برغم أن هذه لم تكن شخصية محببة.

ولقد تزوجت السيدة أوبان فتى وسيماً لا ثروة له، قضى نحبه في مطلع العام ١٨٠٩ تاركاً لها ولدين صغيرين وركاماً من الديون. فباعت زوجته ما كان لديها من بنايات ما عدا مزرعة توك ومزرعة جفوس اللتين كان يبلغ ريعهما خمسة آلاف فرنك على أبعد تقدير. ثم تركت بيتها في سان ميلان لتسكن بيتاً آخر أقل ثمناً كان ملكاً لأجدادها، ويقع وراء أسواق الخضر هذا البيت كان مكسواً بألواح الأردواز، ويقع بين ممر وزقاق يؤديان الى النهر. وكانت أرضيته غير مستوية تماماً فتجعل القدم تزل بعد ثبوتها. بينما كان بهو ضيق يفصل المطبخ عن

الغرفة التي كانت تجلس فيها السيدة أوبان طوال النهار على مقعد من قش مريح بالقرب من البهو. وكان يمتد صف من ثمانية مقاعد مصنوعة من خشب الأكاجو في مقابل الجدار المكسو بالرخام.

وتحت آلة قياس الضغط الجوي كانت كومة من الصلب ومن الورق المقوى موضوعة بشكل هرمي فوق بيانو قديم، بينما وضعت أريكتان تغطيهما قطع من السجاد في محاذاة المدخنة المصنوعة من الرخام الأصفر، وهي من طراز لويس الخامس عشر. وتطالعك ساعة حائط في الوسط، تمثل معبداً لفستا.

وكانت الشقة بكاملها تفوح منها رائحة متعطنة؟ ذلك بأن أرضيتها دون مستوى الحديقة.

في الطابق الأول هناك أولاً غرفة «السيدة»، وهي فسيحة إلى حد كبير، ويغطي جدرانها ورق موشى بألوان باهتة، وتحتوي على صورة زوجها الذي يرتدي فيها لباساً أنيقاً. وتتصل هذه الغرفة بأخرى أصغر منها ترى فيها مخدعين للأطفال خاليين من الفراش، ثم تأتي غرفة الاستقبال المقفلة بصورة دائمة والملأى بقطع الأثاث المغطاة بغطاء قماشي. ثم ممر يؤدي الى غرفة الدرس. وقد ملأت رفوف المكتبة أوراق قديمة، وأحاطت المكتبة بمكتب عريض من الخشب الأسود من

أركانه الثلاثة. واللوحتان المعلقتان على الجدار كانتا تختفيان تحت لوحات رسمت بالريشة، وتحت مناظر رسمت بالألوان المائية. وتحت رسوم أودران[1]، وهي كلها ذكريات زمان أفضل وترف انهار صرحه. وكانت في الطابق الثاني كوة تضيء غرفة فيليسيتيه وتطل على الحقول.

كانت فيليسيتيه تستيقظ عند الفجر حتى لا يفوتها القداس، وتعمل من الصباح حتى المساء بشكل دائب دائم. وعند الانتهاء من طعام العشاء ترتب الصحون بعد أن تنظفها. وبعد إغلاق الباب بشكل محكم تدس الحطب تحت الرماد ثم تنام امام الموقد ممسكة مسبحتها الوردية بيدها. وعند المساومة على ثمن سلعة من السلع، لا يضاهيها أحد في العناد والإضرار على موقفها.

أما بالنسبة الى النظافة، فإن رونق قدورها ولمعانها كانا مثار إزعاج للخادمات الأخريات.

إنها تتوخى الاقتصاد، فلقد كانت تأكل بتؤدة، وتلتقط بإصبعها ما يتساقط على الطاولة من فتات رغيفها. أما رغيفها هذا فهو عبارة عن قطعة ضخمة من الخبز تزن ستة كيلو غرامات

---

(١) يتعلق الأمر من غير شك بجيرار الثاني أودران (١٦٤٠م - ١٧٠٣م) الذي ولد في عائلة من الرسامين والحفارين.

ويصنع لها خصيصاً فيدوم عشرين يوماً.

وفي كل فصل من الفصول كانت ترتدي شالاً كشال الهنديات، مثبتاً على ظهرها بدبوس، وقبعة تخفي تحتها شعرها، وجوارب رمادية، وتنورة حمراء. وكانت ترتدي فوق فستان النوم وزرة ذات صديرة، فتشبه بهذا اللباس الممرضات.

كان وجهها نحيلاً. وصوتها حاداً. وعندما كانت في الخامسة والعشرين كنت تحسها في الأربعين. ومنذ أن بلغت الخمسين لم يعد يبدو عليها أنها تتقدم في السن لتتجاوز هذا العمر. كانت تلزم الصمت بصورة دائمة؛ قامتها مستقيمة وحركاتها موزونة، تبدو كأنها امرأة من خشب تعمل بصورة آلية.

٢

كان لفيليسيتيه قصة حب خاصة بها كأية فتاة أ خرى. فلقد كان أبوها بناء لقي مصرعه عندما وقع من على سقالة البناء. ثم توفيت أمها، وتشتت شمل أخواتها، فآواها مزارع اليه، واستغلها، وهي لا تزال ناعمة الأظفار، في العمل على رعي البقر في البرية.

كانت ترتجف من البرد لأنها ترتدي أسمالاً بالية. وعندما تشرب تراها تنبطح على بطنها عند البحيرات. ثم إنها في يوم من الأيام ضربت لشيء تافه. وفي النهاية طردت من الخدمة بسبب سرقة زهيدة تافهة لم تقترفها هي، فقصدت مزرعة أخرى وأصبحت مسؤولة عن تربية الدواجن فيها. وبما أنها كانت مثار إعجاب معلميها، فإنها لم تسلم من حسد رفيقاتها. ففي عشية يوم من أيام شهر آب (أوغسطس) ـ وكانت وقتها في الثامنة عشرة من عمرها ـ أخذها معلموها الى جمعية كولفيل. وفي الحال، أصابتها الدهشة وعراها الذهول من جراء الضوضاء التي أحدثها عازفو الكمان هناك ، والمصابيح التي علقت على الشجر، وزركشة الثياب، والتخريمات المختلفة التي

رأتها، والصلبان الذهبية، وأخيراً من ذلك الحشد الغفير من الناس الذين يقفزون في وقت واحد على أنغام الموسيقى الصادحة.

ولقد ابتعدت تواضعاً عندما تقدم منها فتى تبدو عليه إمارات الرفاهية والغنى، تقدم وهو يدخن غليونه واضعاً مرفقيه على مقود عجلة صغيرة ذات دولابين. فدعاها لترقص معه. لقد قدم اليها شيئاً من عصير التفاح، وشيئاً من القهوة، كما قدم إليها قطعة من الحلوى وشالاً. وبعد هذا، عرض عليها أن يعيدها الى المكان الذي أتت منه عندما تصور انها فهمت قصده وألقى بها في قسوة ووحشية على حافة حقل من الشوفان، فامتلأ قلبها ذعراً، وأخذت تطلق الصراخ عالياً وهكذا ابتعد الشاب وتوارى عن الأنظار.

وفي مساء يوم آخر، كانت تسير على طريق بومون، أرادت أن تتخطى عربة من التبن تتقدم بتؤدة، وعندما اقتربت منها حتى كادت أن تلامس عجلاتها عرفت وجه تيودور. وهو الشاب السالف الذكر فاقترب منها هذا بهدوء ليخاطبها بقوله: يجب أن تغفري كل شيء لأن كل ما حدث كان بسبب السكر.

فلم تحر فيليسيتيه جواباً وساورتها الرغبة في الفرار من هذا الموقف.

ثم تحدث تيودور عن الحصاد وعن وجهاء القرية لأن والده كان قد هاجر من كولفيل الى مزرعة عائلة إيكو بحيث أصبح مجاوراً لهذه العائلة في السكنى. فقالت له « آه ».وأضاف أن الرغبة في تزويجه كانت واردة. ومع ذلك فلم يكن في عجلة من أمره، إنما كان ينتظر إمرأة تناسب ذوقه. فطأطأت فيليسيتيه رأسها. وسألها تيودور أخيراً إذا كانت تفكر في الزواج أم لا. فقالت له وهي تبتسم: ليس من اللائق بك أن تتخذني هزواً فأجابها:

ـ « لا! أقسم لك أنني لا أهزأ بك، بل أنا جاد في ما أقول! »

وطوق بيده اليسرى خصرها، فكانت تسير مستندة الى هذه اليد التي تضمها. وأخذا يسيران الهوينا ؛ فلقد كان الهواء حاراً ورطباً، والنجوم تلمع في كبد السماء، بينما كان حمل العجلة يتأرجح أمامهما غير مستقر عليها، والجياد الأربعة تثير الغبار متهادية ببطء على الطريق. ثم استدارت الجياد الى اليمين دون أمر من سائسها فعانق تيودور فيليسيتيه مرة اخرى ثم اختفت متوارية عن الأنظار في ظلمة الليل البهيم.

وفي الأسبوع التالي أخذ تيودور منها مواعيد للقاءات قادمة بينهما. فلقد كانا يلتقيان عند القسم الخلفي من المنتزهات المشجرة، وراء أحد الجدران وتحت شجرة منفردة.

ولم تكن فيليسيتيه مبرأة من المرامي والأهداف البعيدة على طريقة الأنسات غير المتزوجات. فلقد تعلمت من الحيوانات، ولكن عقلها وشرفها منعاها من الزلل والانزلاق الى هوة الرذيلة. وإن مقاومة فيليسيتيه لإغراءات تيودور أثارت حفيظة الأخير وغيظه، بحيث أنه عرض عليها الزواج ليرضيها. وربما فعل هذا بسبب سذاجته. فترددت في تصديقه، فأقسم بأغلظ الايمان على صدق ما يقول. وبعد قليل أقر تيودور بشيء يثير الغيظ والغضب، فلقد اعترف بأنه في العام الماضي اشترى له والده رجلاً[1]. ولكن بين يوم وآخر كان يمكن أن يعاد أخذه الى الجندية. ففكرة الخدمة العسكرية كانت تثير ذعره. وهذا الجبن كان بالنسبة لفيليسيتيه برهاناً على المحبة والعطف اللذين يتمتع بهما تيودور. فتضاعفت محبتها هي الأخرى وتضاعف عطفها.

كانت تهرب ليلاً لتذهب الى حيث ضرب موعد اللقاء. وعندما تصل الى هناك كان تيودور يعذبها بما يبديه من قلق

---

(١) كان تطويع المجندين للخدمة العسكرية يتم بالقرعة. وهكذا، فلم يكن يطوع إلا الشباب الذين لم يحالفهم الحظ في القرعة. لكنهم كانوا يتمتعون بحق استبدال غيرهم بهم. وكان للذين يحلون محل غيرهم قيمة تجارية كالسلعة. ففي رائعة فلوبير: «التربية العاطفية» نرى والد شارل دولوربيه أقيم بائعاً للرجال في مدينة ترويز. وظل هذا الأمر سارياً مطبقاً زهاء قرنين من الزمان، ثم بطل سنة ١٩٠٥.

وللجاجة بسبب احتمال تطويعه في الخدمة العسكرية. ولكنه حدث أن أخبرها أخيراً بأنه سيذهب بنفسه الى قسم الشرطة لاستيفاء المعلومات حول ذلك الموضوع، وأنه سيوافيها بها الأحد المقبل بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل.

وهرعت فيليسيتيه الى معشوقها عندما حان الموعد المضروب، فوجدت أحد أصدقائه يجلس مكانه، فأعلمها أنه عليها الا ترى معشوقها مرة أخرى، فلقد تزوج تيودور إمرأة ثرية أوسع ثراء، اسمها لوهوسيه دوتوك، وذلك كي يضمن لنفسه الا يتم تجنيده.

كان ذلك الخبر بالنسبة الى فيليسيتيه مدعاة لحزن عظيم وغم كبير، فلقد ألقت بنفسها أرضاً، وأطلقت الصراخ حاداً، ودعت الله دعاء حاراً، ثم أطلقت الآهات الحرى، وهي تسير في البرية وحيدة متفردة حتى طلوع الشمس. ثم عادت الى المزرعة وأعلنت نيتها وعزمها على أن تغادرها. وبعد شهر من الزمان وضعت في منديل ما خف من متاعها وذهبت الى بون لوفيك. وأمام الفندق في بون لوفيك سألت امرأة من الطبقة البورجوازية تلبس رداء الترمل، وهو رداء يغطي الرأس والكتفين. كانت هذه الأرملة تبحث عن طاهية. ولم تكن فيليسيتيه تعرف شيئاً مهماً من هذه المهنة، ولكنها تبدي قدراً من قوة الارادة وعدم المبالغة في متطلباتها جعل السيدة أوبان تقول

لها: ـ « لقد قبلت بك ».

وبعد مضي ربع ساعة من الزمان كانت فيليسيتيه في بيت السيدة أوبان.

عاشت السيدة أوبان بادىء الأمر في ذلك البيت بشيء من عدم الاستقرار النفسي سببه لها « طراز البيت » وذكرى زوجها التي كانت تهيمن على كل شيء فيه! فبول[1] الذي كان عمره سبع سنوات، وفرجيني التي ناهزت أربع سنوات أو تكاد، هذان الطفلان كانا يبدوان لها أنهما يتكونان من مادة ثمينة. وكانت فيليسيتيه تحملهما على ظهرها وكأنها جواد، بينما منعتها السيدة أوبان من أن تقبلهما كل دقيقة. وذلك ما عذبها. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت فيليسيتيه تشعر بالسعادة. وإن الجمال الذي كان يتمتع به ذلك المكان أذهب عنها حزنها وغمها. وكان بعض المترددين على ذلك البيت يأتون اليه كل خميس ليمارسوا لعب الورق. وكانت فيليسيتيه تعد لهم ورق اللعب والمدافىء الصغيره مقدماً. كانوا يأتون الثامنة مساءً وما تكاد الساعة أن تعلن الحادية عشرة حتى ينتهي اللعب وينصرف اللاعبون.

---

(١) من المتفق عليه أن طفولة بول وفرجيني تمثل هنا وبشكل مباشر طفولة فلوبير الى حد ما، وطفولة أخته كارولينا المولودة سنة ١٨٢٤، أي أنها أصغر من أخيها بثلاث سنوات. وتوفيت سنة ١٨٤٦. ويبدو أن غيابها عن مسرح الحياة يستحضر ذكرى موت فرجيني والذكريات التي خلفتها.

وفي الصباح من كل يوم إثنين، كان بائع الخردة المقيم تحت رواق البيت يطرح بضاعته على الأرض ليحصل رزقه وقوته. وترى المدينة كلها تمتلىء إثر ذلك بالأصوات المدوية كدوي النحل حيث يختلط صهيل الخيل بثغاء الحملان ونخير الخنازير، مضافاً الى ذلك كله الضجة الجافة التي تحدثها العربات الصغيرة في الشارع.

وفي نحو الساعة الثانية عشرة ظهراً، بينما حركة السوق في ذروتها من النشاط، كان يظهر على عتبة البيت فلاح هرم، معقوف الأنف، فارع الطول، أمال قبعته الى الخلف. هذا الفلاح هو روبلان، مزارع بلدة جيفوس. وبعد ذلك بقليل دلف الى ذلك البيت رجل اسمه ليبار، وهو مزارع بلدة توك. قامته قصيرة، أحمر البشرة، ذو بدانة ظاهرة، يلبس سترة رمادية، ويضع على ساقه لفافات مزودة بمهاميز. وكلا الأثنين كانا يهديان الى صاحبة هاتين المزرعتين دجاجاً وجبناً. وكانت فيليسيتيه تحبط مكرهما ودهاءهما بشكل دائم، فينصرفان وقلبهما مفعم بالإجلال والاحترام لها.

وفي فترات غير محددة كانت السيدة أوبان تستقبل مركيز بلدة غرومنفيل وهو أحد أعمامها الذي أوقعه في الإفلاس انغماسه في الفجور، وكان يعيش في « فاليز » على آخر قطعة أرض من أراضيه المفقودة.

كان يأتي دائماً في ساعة الغداء يصحبه كلب مخيف لا تدع قوائمه نظافة لقطعة من الأثاث إلا أتت عليها. ورغم جهوده المبذولة لكي يبدو نبيلاً من النبلاء - حتى انه كان يرفع قبعته احتراماً كلما لفظ عبارة « أبي رحمه الله»-. فإن العادة ساقته لأن يمعن في الشرب ويتلفظ بكلمات تنم عن سفه الاحلام وطيش الأفكار.

وكانتْ فيليسيتيه تدفعه الى الخارج بلطف قائلة له: « حسبك ما شربت اليوم يا سيد غرومنفيل! والى مرة قادمة! ». ثم تغلق الباب.

لكنها كانت تفتح الباب بسرور في وجه السيد بوريه، وكيل الدعاوى القديم. فربطة عنقه ذات اللون الأبيض، وصلعته اللامعة، وقطعة القماش التي تزين قميصه عند صدره، ومعطفه البني الفضفاض، ثم حركة يده الدائرية وهو ينشق العطوس، وأخيراً، فإن كيانه كله كان يحدث لها ذلك الاضطراب الذي يلقينا في خضمه منظر الرجال الخارقين.

ولما كان يدير أملاك السيدة أوبان، فلقد كان يختلي بها ساعات وساعات في حجرة زوجها.

كان يخشى على الدوام أن يعرض نفسه للشبهات، وكان يحترم القضاء الى أبعد حد، ويدعي معرفة اللاتينية.

ولكي يعلم طفلي السيدة أوبان بطريقة لا تخلو من اللذة

والامتاع، فقد أهدى إليهما كتاباً للجغرافيا المصورة، يحتوي على مشاهد مختلفة من العالم، وصور لآكلي لحوم البشر ذوي الرؤوس المغطاة بالريش، أو يحتوي على صورة تمثل قرداً يحمل فتاة، وثالثة تمثل رجالاً من البادية في الصحراء، أو رابعة يظهر فيها حوت من الحيتان يصطادونه بالخطاف الخ...

وقدم بول، إبن السيدة أوبان، شرحاً عن هذه الصور الجغرافية للخادمة فيليسيتيه. وكانت هذه الثقافة الجغرافية تختصر ثقافة فيليسيتيه كلها.

أما الثقافة الأدبية للطفلين، طفلي السيدة أوبان، فقد كان يقوم بها غويو، وهو رجل مسكين موظف في البلدية، ويشتهر بخطه الجميل. ولقد كان يشحذ مديته بتمريرها على حذائه.

وعندما يكون الطقس جميلاً، يذهب الناس في وقت مبكر من النهار الى مزرعة جفوس التي يقع فناؤها على أحد السفوح والمنحدرات، بينما البيت قائم في الوسط والبحر يبدو من بعيد بقعة رمادية.

كانت الخادمة فيليسيتيه تخرج من سبتها شرائح اللحم البارد، بينما طعام الغداء يتناول في شقة تلي معمل الألبان، وهذه الشقة هي البقية الباقية من منازل الاستجمام الريفية.

وكانت اوراق الجدران الممزقة في هذه الشقة تهتز إذا ما

تعرضت لمجاري الهواء. أما السيدة أوبان فقد كانت تطأطىء رأسها وقد أثقلت الذكريات كاهلها.

واما الطفلان فلم يعودا يجرؤ ان على أن ينبسا ببنت شفة، فتخاطبهما السيدة أوبان بقولها: «إلعبا!»، فما يكون منهما إلا أن يطلقا سيقانهما للريح.

وكان الطفل بول يصعد الى مستودع الحبوب فيلتقط العصافير، ويلقي بالحجارة على البحيرة ليتمتع بمنظر الدوائر التي تأخذ بالاتساع شيئاً فشيئاً على سطح البحيرة تلك، أو يقرع بعصاه البراميل الكبيرة فتصدر منها أصوات شبيهة بدقات الطبول. بينما أخته فرجيني تطعم الأرانب وتهبط من مكانها لتقطف الترنجان. ولقد كانت تركض فتسرع في ركضها الى درجة تظهر معها سراويلها المطرزة الصغيرة.

وفي إحدى أمسيات الخريف عاد الجميع من حيث أتوا عبر المروج، والقمر في ربعه الأول يضيء قسماً من السماء، بينما يغشى الضباب ما تعرج من دروب بلدة توك وكأنه وشاح يلفها لفاً، بينما بعض الثيران المستلقية وسط الحشائش تحدج بنظراتها الهادئة الأشخاص الأربعة هؤلاء الذين مروا بالقرب منها.

وفي المرعى الثالث من مراعي المزرعة، نهض البعض فجلسوا متحلقين حول الأربعة العائدين. فقالت فيليسيتيه:

« لا تخشوا شيئاً! »، وأظهرت كل لطف ولباقة تجاه الشخص الجالس بالقرب منها، وذلك بأن وضعت يدها على ظهره متمتمة كلمات تفوح منها رائحة الشكوى، فتراجع الى الوراء، وفعل زملاؤه مثل ما فعل فتراجعوا هم أيضاً.

وعندما اجتازوا المرج الذي يليه إنطلق خوار هائل من ثور حجبه الضباب عن الأنظار، واقترب هذا الخوار من فيليسيتيه ومن السيدة أوبان. وكادت هذه أن تجري قرفاً منه ورعباً، فقالت لها فيليسيتيه:

ـ « كلا، لا تسرعي هكذا! » وبرغم تلك النصيحة سارت الاثنتان بخطى سريعة وهما تسمعان خلفهما أنفاساً صاخبة تقترب رويداً رويداً. وكان حافرا الثور يقعان على أعشاب المرج وقوع المطارق. فها هو الآن يعدو بسرعة! ولكن فيليسيتيه استدارت وأخذت تنتزع من الأرض كتلاً من التراب بكلتا يديها، تقذف بها على عيني الثور الهائج. فأحنى الثور خطمه وهز قرنيه، وأخذ يرتعد غضباً مطلقاً خواراً مرعباً. وكانت السيدة أوبان تبحث مع ولديها الصغيرين عند أحد أطراف المرج، عن طريقة لاجتياز حافة هذا الأخير العليا، وهي في بحثها هذا ظاهرة الاضطراب، بينما الخادمة فيليسيتيه تتراجع باستمرار أمام الثور وتلقي على عينيه تلاعاً من العشب فيزيغ بصره بينما طرفها يتعالى بهذا النداء:

«إسرعوا! إسرعوا» وهبطت السيدة أوبان الحفرة ودفعت أمامها فرجيني، وقد وقعت أرضاً غير مرة وهي تحاول اجتياز التلعة، ولقد تحقق لها ذلك في نهاية الأمر بفضل ما أبدته من شجاعة.

وحشر الثور فيليسيتيه عند حاجز شبكي، وأخذ لعابه يتصبب على وجهها، فما عتم حتى وجه ضربة من قرنيه الى بطنها. وسنحت لها الفرصة في أن تتسلل لواذاً عبر قضيبين حديديين من قضبان ذلك الحاجز. فسكت عن الثور الغضب وقد أصابه من الذهول ما أصابه بفعل هذه المفاجأة.

وأصبحت هذه الحادثة حديث الناس لسنوات وسنوات في مدينة بون لوفيك ولكنها لم تثر لدى فيليسيتيه أي زهو أو فخار، بل وتذهب الى أبعد من ذلك حيث انها لا تشك في أنها لم تقم بشيء بطولي عندما كان منها ما كان للتخلص من المأزق الذي زجها الثور فيه.

وكانت فرجيني تستولي على عقلها وقلبها دون سواها، ذلك بأن مرضاً من الأمراض العصبية أصابها إثر ما حصل لها مع الثور، وما أصابها من الذعر. ونصح لها الدكتور بوبار بأن تستحم في مياه بحر مدينة تروفيل. وفي ذلك الوقت لم يكن أحد من الناس يرتاد حمامات ذلك البحر. فأخذت السيدة أوبان المعلومات اللازمة، واستشارت بوريه، وبدت عن

استعدادها للرحيل الى ذلك المكان، بدت كأنها تستعد لرحلة طويلة.

لقد أرسلت طرودها في عربة ليبيار عشية اليوم الذي حدد موعداً للسفر.

وفي اليوم التالي أحضر جوادين كان لأحدهما مقعد خاص بامرأة ومجهز بمسند مخملي. وعلى ردف الجواد الثاني معطف وضع بطريقة يصلح بموجبها لأن يكون مقعداً. فصعدت اليه السيدة أوبان وجلست خلف ليبيار، بينما أخذت فيليسيتيه على عاتقها مهمة العناية والاهتمام بفرجيني.

وامتطى بول حمار السيد لا شابتوا، وقد اشترط عليهم هذا أن يعتنى بالحمار عناية فائقة في مقابل إعارته لهم.

كانت الطريق الى تروفيل على درجة من السوء جعلت قطع المسافة التي لا تتعدى ثمانية كيلو مترات يستغرق ساعتين كاملتين. بينما قوائم الحصانين تنغرز في الوحل حتى الرسغ. ولقد كانا يقومان بحركات خاطفة مفاجئة بعجزهما عن الخروج من هذا الوحل، أو يرتطمان بالثلوم والأخاديد، وأحياناً يقفزان. وكان جواد ليبيار يتوقف فجأة في بعض الأمكنة، وتنتظر السيدة أوبان بفارغ الصبر أن يستأنف ذلك الجواد سيره.

كانت السيدة أوبان تتحدث عن الأشخاص الذين لهم

ممتلكات على حاشية الطريق التي تسلكها، مضيفة في حديثها عنهم أفكاراً وخواطر أخلاقية حكيمة.

هكذا، وفي منتصف الطريق الى بلدة توك حيث كانوا يمرون تحت نوافذ يكتنفها النبات من كل جانب، قال السيد ليبار رافعاً كتفيه:

- « هذه هي السيدة لوهوسيه التي كان عليها بدلاً من أن تأخذ فتى شاباً. . . . » ولم تسمع فيليسيتيه بقية الجملة حيث أشاحت بوجهها عنه كراهية منها لأن يكمل ليبار حديثه.

أما الجوادان فكانا يقفزان في سيرهما نحو تروفيل، والحمار يعدو سريعاً. ودخلوا في ممر ضيق حيث كان يوجد أحد الحواجز فزحزح عن مكانه. وظهر هنالك بعض الصبية. وعندما وصلوا الى بلدة تروفيل نزلوا عند الباب، ولما رأت الأم ليبار معلمتها السيدة أوبان. بالغت في الظهور مظهر الفرح الغامر، واعدت لها مائدة الغداء التي حوت الكروش والمقانق والدجاج المحمر، وعصير التفاح الفوار، وكعكة بالفاكهة المطبوخة بالسكر، وخوخاً فيه شراب مسكر. وزيادة على ذلك كله، كانت تظهر اللياقة والأدب أمام السيدة أوبان التي بدت في أفضل حالاتها الصحية، وأمام ابنتها التي أصبحت « رائعة » متألقة في جمالها، كذلك امام السيد بول الذي كبر وقوي بشكل منقطع النظير.

ولم تنس أجدادها المرحومين الذين عرفتهم أسرة ليبيار، حيث ان هذه الأسرة كانت في خدمة أسرة أوبان منذ أجيال خلت. وكان للمزرعة صفة القدم والعراقة مثلهم. فأعمدة السقف الخشبية أكلها السوس، والجدران سوداء لما غشيها من الدخان، وزجاج النوافذ أصبح رمادياً من فرط ما تراكم عليه من غبار.

وإن خزانة الصحون المصنوعة من خشب البلوط كانت تحتوي على الآنية المنزلية من كل صنف ولون، فمن الاباريق، الى الصحون وجفان القصدير، الى فخاخ الذئاب، ثم الى العقاقير وغيرها من المقويات للخرفان. وإضافة الى ذلك كله، كانت توجد محقنة ضخمة تثير ضحك الطفلين بول وفرجيني [١].

وما من شجرة من أشجار الساجا الثلاث خلت من الفطريات عند أصولها أو من نبات الهدال عند فروعها وأغصانها. ولقد ألقت الريح أرضاً كثيراً منها فعاودت نماءها في وسطها. وكانت هذه الأشجار الثلاث تنثني وتطأطىء هاماتها رازحة تحت ثقل ما كانت تحمله من ثمرات التفاح.

أما الأسقفة المصنوعة من القش المتفاوتة في مستوياتها والتي

---

(١) كانت المحقنة في ذلك الوقت تستعمل كحقنة شرجية.

تشبه المخمل ذا اللون البني، فقد كانت تصمد في وجه أشد العواصف وأعتاها.

ورغم ذلك، فإن معمل العجلات كان مصيره البوار والإفلاس.

وأمرت السيدة أوبان بإعادة إسراج الخيل.

ومكث الجميع نصف ساعة إضافية قبل توجههم الى تروفيل.

ترجل الركبان من على صهوات الخيل المسرجة لكي يجتازوا صخرة «إيكور»، وهي صخرة تشرف على موقع المراكب. بعد ثلاث دقائق، وعند آخر الرصيف دخلوا في فناء لانيودور قاصدين الى الأم دافيد.

أحست فرجيني منذ الأيام الأولى لإقامتها في تروفيل بأنها أكثر عافية وصحة من ذي قبل، وذلك نتيجة تغيير الهواء وبفعل تأثير الحمامات التي نصح بها الطبيب.

كانت فرجيني تستحم بالقميص لعدم وجود اللباس الخاص بالاستحمام، بينما خادمتها تلبسها ثيابها بعد الانتهاء من استحمامها في مياه بحر تروفيل، في حجرة موظف الجمارك التي كان يستخدمها المستحمون.

وفي فترة ما بعد الظهر، كانوا يذهبون يصحبهم حمارهم الى ما وراء الصخور السوداء من جهة هنكفيل.

فالممر عند بدايته يمتد صعداً بين أراض كثيرة الأودية، يمتد كالبساط الأخضر في روضة من الرياض أو منتزه من المنتزهات. وبعد ذلك يصل في امتداده الى سهل تتعاقب فيه المراعي والحقول المحروثة. وعلى حاشية الطريق، ووسط ركام من العليق والعوسج، تنتصب نباتات شرابة الراعي، بينما تهتز شجرة ضخمة يبس عودها، تهتز متمايلة مع أغصانها محدثة خطوطاً متعرجة في الهواء اللازوردي.

وكانوا يأخذون قسطاً من الراحة بشكل شبه دائم، في حقل من الحقول، وبين دوفيل من الجهة اليسرى والهافر من الجهة اليمنى، بينما يمتد البحر قبالتهم بصفحته الجميلة الزرقاء.

كانت مياه البحر متلألئة في لمعانها تحت الشمس. كان البحر ينعم بالسلام التام، بعيداً عن ثورة أمواجه التي لا تكاد تسمع هيمنتها. بينما عصافير الدوري تزقزق مرددة أنغامها العذبة، أما قبة السماء المترامية الأرجاء فقد كانت شاهدة على كل ما يجري تحتها.

وكانت السيدة أوبان تتعاطى الخياطة وهي جالسة. أما فرجيني التي تجلس قربها فتجدل الأسل الذي تصنع منه السلاسل، بينما فيليسيتيه تنزع الطفيليات من أزهار الخزامى.

وهم بول بمغادرة المكان لما اعتراه من ضجر.

وفي مرات أخرى غير هذه كانوا يبحثون عن الأصداف

بعد مرورهم على بلدة توك عبر البحيرة الضحلة التي تسمح ضحالة مياهها برؤية حيوانات نهرية مثل التوتيا وقناديل البحر وغيرها. والطفلان بول وفرجيني يهرعان ليلتقطا كرات من الزبد يحملها الريح معه. بينما الأمواج الهادئة تجري متقدمة نحو الشاطىء الذي تتعاقب فيه الحصباء والرمال ممتدة على مدى البصر.

أما من جهة البر فتحدها الكثبان التي تفصلها عن مرج « ماريه »، وهو عبارة عن مرج عريض يشبه في شكله ميدان سباق الخيل.

وأثناء عودتهم عبر هذا الطريق كانت معالم تورفيل تتضح شيئاً فشيئاً ومع كل خطوة يخطونها، بمنازلها المتفاوتة في مستوياتها والتي تبدو في فوضى تمتزج بالبهجة والفرح.

وكانوا لا يخرجون من غرفتهم أيام الحر الشديد، عندما يكون النور في الخارج يبهر الأبصار ويخطفها ويرسم قضباناً من النور عبر الصفائح الزجاجية للنوافذ.

ففي هذه البلدة لا تكاد تسمع ضجة ولا نأمة، ولا تجد أحداً يتجول. هذا الصمت المسيطر كان يضفي على الهدوء المهيمن هدوءاً جديداً.

وكانت مطارق العمال الذين يطلون هياكل السفن بالقار،

تهوي عليها، بينما النسيم القوي يحمل رائحة القطران الى مسافات شاسعة.

أما اللهو البريء الذي يستحق أن يمارسه الأطفال، فكان عند عودة المراكب. فما إن تتجاوز المراكب معالمها حتى تبدأ بالسير متعرجة متذبذبة، وتنخفض أشرعتها الى مستوى ثلثي الصواري ، بينما الأشرعة القائمة في مقدمتها تنتفخ كالكرة. وفي هذه اللحظة بالذات تأخذ في التقدم الى الامام وتنزلق وسط اصطفاق الأمواج الى وسط الميناء حيث تلقى المراسي فجأة. ثم تأخذ المراكب مكانها قبالة الرصيف. أما البحارة فيلقون من على متنها الأسماك المختلجة بآخر أنفاس الحياة، بينما العربات تنتظم في صف طويل واقفة في انتظارهم.

أما النسوة فيتطاولن بأجسامهن نحو المراكب ليأخذن السلال ويقبلن أزواجهن.

وفي يوم من الأيام تصدت إحدى هاتيك النسوة للحديث مع فيليسيتيه وما لبثت أن دخلت هذه الى غرفتها مشرقة الوجه منبسطة الأسارير، فلقد وجدت أختاً لها. وظهرت ناستازي باريت لورو تضم الى صدرها رضيعاً، وتمسك بيدها اليمنى طفلاً آخر، بينما كان عن شمالها ولد صغير يضربها بكلتا قبضتيه على خاصرتها. وبعد ربع ساعة من الزمان أمرتها السيدة أوبان بأن تغادر المكان.

كانت أخت فيليسيتيه هذه وأولادها يتواجدون دائماً في محيط المطبخ، أو في النزهات التي تقوم بها السيدة أوبان مع طفليها وخادمتها.

أما صهر فيليسيتيه فلم يكن يظهر مع عائلته.

أحبتهم فيليسيتيه وحفظت لهم الوداد في قلبها، فاشترت لهم قمصاناً وغطاء وفرناً. وبالطبع فقد كانت أخت فيليسيتيه وأولادها يستغلونها. هذا الضعف من فيليسيتيه أغاظ السيدة أوبان واستثارها. فهي لم تكن تحب زوال الكلفة وانتفاء اللياقات لدى ابن أخت فيليسيتيه، ذلك بأنه كان يخاطب ابنها بصيغة المفرد التي تنأى عن الرسميات واللياقات.

وبما أن فرجيني كان ينتابها السعال، ولم يكن الفصل ملائماً لصحتها، فقد قفلت السيدة أوبان عائدة الى بون لوفيك.

أرشد السيد بوريه السيدة أوبان بشأن اختيار المدرسة الفضلى لابنها بول فلقد نصح لها بأن مدرسة مدينة « كان » هي الفضلى، فأرسلت اليها ابنها بول، وودع هذا أمه بشجاعة ورباطة جأش عند مغادرته البيت اليها راضياً بالعيش في بيت لا يخلو من رفاق وزملاء.

وأذعنت السيدة أوبان لوجود ابنها بعيداً عنها لأن ذلك شيء لا بد منه ولا خيار لها فيه. وكان تفكير فرجيني في غياب أخيها عن بيت أبويه، يتلاشى ويضعف شيئاً فشيئاً.

أما فيليسيتيه فقد أسفت لافتقادها ما كان يحدثه بول من ضوضاء، وشعرت بالفراغ بسبب غيابه وتواريه عن حياتها. ولكنها اعتادت وألفت عملاً جديداً وجدت فيه ما فاتها من تسلية وعزاء بسبب غياب بول فلقد كانت ترافق أخته الصغيرة فرجيني الى الكنيسة لتأخذ دروساً فى الديانة المسيحية.

٣

كانت فيليسيتيه ترسم عند باب الكنيسة اشارة الصليب، ثم تتقدم سائرة تحت السقف المرتفع، بين صف مزدوج من المقاعد. ثم تفتح المقعد المخصص للسيدة أوبان وتجلس عليه مجيلة نظرها في من حولها وما حولها من الناس والأشياء.

كان الصبيان يجلسون عن اليمين، والبنات عن اليسار على المقاعد المخصصة لجوقة المنشدين في صدر الكنيسة، بينما الكاهن يقف بالقرب من المكان المخصص للترتيل. وعلى إحدى الواجهات الزجاجية من محراب صدر الكنيسة تجد صورة تمثل الروح القدس فوق السيدة العذراء، بينما تمثل أخرى السيدة العذراء راكعة أمام الطفل يسوع. وتبدو تماثيل خشبية خلف بيت القربان تمثل مار ميخائيل وهو يجندل التنين ويصرعه.

في باديء الأمر قدم الكاهن نبذة مختصرة ولمحة موجزة عن الكتاب المقدس. وعبر ذلك السرد الموجز وفي ظل ذلك الشرح الذي كان يقوم به الكاهن، كانت فيليسيتيه تظن أنها ترى الجنة والطوفان، وبرج بابل، ومدناً مشتعلة بالنار، وشعوباً

تموت، وأوثاناً معبودة تهوي وتتحطم، فـاحتفظت من هـذا الشرح الذي بهرها بشيء واحد هو الاحترام والاجلال للعلي الأعلى، والخشية من غضبه. ثم بكت أثناء إصغائها للموعظة التي تحدثت عن آلام السيد المسيـح. وكانت تحـدث نفسها وتطرح عليها أسئلة متعددة، كانت تقول لنفسها: لماذا صلبوه؟ وهـو الـذي كـان يحب الأطفـال ويـطعم النـاس، ويبـرىء المكفوفين! وهو الذي أراد أن يولد وسط المساكين وفي مذود زريبة، تلطفاً منه وكرماً! فمواسم البذار، ومواسم الحصاد، والمعاصر، وكل الأشياء المألوفة والتي يتحدث الانجيل عنها، كل ذلك كان موجوداً في حياة فيليسيتيه، تعايشه وتأنس له، وإن مجرد ورود اسمها في الكتاب المقدس جعل هذه الأشياء نفسها طاهرة مقدسة. ولقد أحبت الحملان بحنان أعظم، وما ذلك إلا لأنها أحبت الحمل المذكور في الانجيل، كما أحبت الحمام من أجل الروح القدس.

إمتنع عليها تصور شخص الروح القدس، ذلك بأنه لم يكن طيراً فقط، بل كان ناراً أيضاً، وأحيانـاً ريحاً عـاصفة عاتية. وربما نوره هو الذي يحوم ليلاً على ضفاف المستنقعات، ونفسه هو الذي يدفع السحب في الفضاء، وصوته هو الذي يجعل أصوات النواقيس رخيمة مثل أنغام الموسيقى.

ولقد لبثت في حالة من العبادة تستمتع ببرودة الجـدران

وهدوء الكنيسة أما في ما يختص بالعقائد، فلم تكن تفهم منها شيئاً، بل إنها لم تحاول أن تفهم منها شيئاً.

كان الكاهن يلقي عظته، والأولاد ينشدون ما قاله ويرددونه. أما فيليسيتيه فكانت تستسلم في تلك الأثناء للنوم، ثم تستيقظ فجأة على وقع نعال التلاميذ.

بهذه الطريقة، ومن فرط ما سمعت دروس التعليم الديني، تعلمت طقوس الديانة المسيحية، حيث إن ثقافتها الدينية كانت مهملة أثناء فترة الصبا. ومنذ ذلك الحين أصبحت تقلد فرجيني في الشعائر الدينية التي تؤديها، فتصوم مثلها وتعترف معها.

ولمناسبة الاحتفال بخميس الجسد، أقامت فيليسيتيه مع فرجيني مذبحاً. فالمناولة الأولى كانت تعذبها قبل أن تقوم بها فلقد قامت بحركات بقدميها أثناء محاولة أمها إدخال الحذاء فيهما. كذلك فعلت من أجل المسبحة والكتاب والقفازات. ولكم شعرت طوال مدة القداس بالغم والضيق. وكان السيد بوريه يحجب عنها إحدى زوايا جوقة المرتلين.

وفي الجهة الأخرى المقابلة تماماً جمع غفير من العذارى المكللات بالأكاليل البيضاء فوق ملاءاتهن المسدلات. منظر غاية في الروعة والجلال، يشبه ببياضه ونقائه حقلاً من الثلج.

لقد تعرفت فيليسيتيه عن بعد على الصغيرة العزيزة

فرجيني، بعنقها الذي بدا أجمل وأظرف من أي وقت مضى، وعرفتها بهيئتها الخاشعة المتأملة. وقرع الجرس فتطأطأت الرؤوس وعم الصمت.

وعلى أنغام الارغن الصادحة أنشد المنشدون والجمهور نشيد الحمل الإله. ثم بدأ إستعراض الصبية. ونهضت الفتيات بعدهم ليقمن باستعراضهن. فلقد كن يسرن نحو المذبح المضيء بخطواتهن المنتظمة الموقعة، ويركعن على الدرجة الأولى منه بأيديهن المتشابكة. ثم يتناولن خبز الذبيحة واحدة واحدة، ويعدن أخيراً الى مصلاهن حسب الترتيب عينه.

وعندما جاء دور فرجيني لتتناول خبز الذبيحة، إنحنت فيليسيتيه لرؤيتها. وعبر التصورات التي تتفجر من الحنان، خيل الى فيليسيتيه انها هي نفسها فرجيني، فوجهها صار وجهاً لفرجيني وثوبها أصبح يناسب قياس جسم فرجيني وقلب هذه الصغيرة ينبض في صدرها هي.

وعندما فتحت الصغيرة فمها مسدلة أجفانها، في هذه اللحظة بالذات كادت أن تقع في غيبوبة.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، ذهبت الى المكان الذي يلبس فيه الرهبان أثوابهم، أي الى خزانة الأمتعة المقدسة، ذهبت الى هناك لكي تتناول أمام الكاهن، فتناولت

بشعور من الورع والتقى، ولكنها لم تذق فيه من النعيم ما ذاقته من قبل.

كانت السيدة أوبان تريد أن تصنع من ابنتها إنسانة كاملة. وبما أن السيد غويو لم يكن في وسعه أن يعلمها اللغة الانكليزية ولا الموسيقى، فقد عزمت على وضعها في مدرسة داخلية تابعة لعائلة أورسوليه دونفلور[١]. لم تعترض الطفلة فرجيني على هذا. ولكن فيليسيتيه تنهدت عندما وجدت أن السيدة أوبان قاسية القلب، باردة العواطف. ثم فكرت أنه ربما كان لمعلمتها الحق في ذلك، فتلك الأشياء تتجاوز صلاحياتها وتقع خارج دائرة خبراتها.

في أحد الأيام، وقفت أمام باب المنزل عربة خيل لنقل الأثاث، فترجلت منها راهبة جاءت لتأخذ فرجيني الى المدرسة الداخلية التي عزمت والدتها على إدخالها إياها. فرفعت فيليسيتيه حقائبها الى الطبقة العلوية منها، ونقلت توصياتها الى الحوذي، ثم وضعت في الصندوق ستة من الآنية المحتوية على أنواع من المربيات، ودزينة من الإجاص مع طاقة من أزهار البنفسج. وفي اللحظة الأخيرة من مغادرة فرجيني منزل والديها استسلمت لعواطفها وأخذت تنتحب فعانقت امها التي كانت

(١) هذا الاسم مستوحى من دير دونفلور حيث نشأت والدة فلوبير.

تقبلها عند جبهتها قائلة: «تشجعي! تشجعي!». ثم رفع الموطىء وانطلقت العربة. وعندئذ اصيبت السيدة أوبان بالإغماء.

وعند حلول المساء جاء جميع أصدقائها يزورونها حتى يخففوا عنها بعض ما تجده من الألم واللوعة لفراق ابنتها. كما زارتها عائلة لورمو، والسيدة لاشابتوا، وآنسات من عائلة روشفوي، والسيد دوهو بفيل، والسيد بوريه.

كان حرمان السيدة أوبان ابنتها مؤلماً أشد الإيلام في بداية الأمر. ولكنها كانت تتلقى منها ثلاث رسائل في الأسبوع الواحد. وفي الأيام الباقية من الأسبوع تكتب هي لابنتها الأجوبة عليها. كما كانت تتجول في حديقتها وتقرأ ما تيسر لها أن تقرأ.

بهذه الطريقة كانت السيدة أوبان تملأ فراغها.

وتدخل فيليسيتيه في الصباح كالمعتاد، الى غرفة الطفلة فرجيني، وتلقي نظراتها المتأملة على جدرانها. أما الذي كان يملأ نفسها ملالة وسآمة فهو انها لم تعد تسرح شعر فرجيني، أو تربط لها حذاءها، أو تطوي غطاء سريرها الجانبي ساعة نومها. كذلك أضجرها أنها لم تعد تكتحل عيناها برؤية وجهها اللطيف، ولم تعد تمسك بيدها كما كانت تفعل من قبل كلما ذهبت وإياها في شأن من شؤونها.

وحاولت فيليسيتيه أن تتعاطى شغل التخريمات في أوقات فراغها.

كانت أناملها التي تعوزها الرشاقة، تقطع الخيط في كل مرة. ولم تكن لترضى بشيء. فلقد طار النوم من عينيها «وحفر فيها الزمن أخاديده»، حسب تعبيرها هي. ولكي تسري عن نفسها طلبت الإذن في أن تستقبل ابن شقيقتها فيكتور.

وصار يزورها. كان يأتي يوم الأحد، بعد القداس. كان خداه متوردين، وصدره عارياً، وتتضوع منه رائحة البرية التي مر بها وهو في طريقه الى بون لوفيك ليرى خالته فيليسيتيه.

وفي الحال تضع المائدة، وتتناول طعام الغداء مع ابن اختها، حيث يجلسان وجهاً لوجه. وبينما تقتر على نفسها في طعامها لتوفر منه ما تيسر توفيره تترع معدته الى حد يستسلم معه للنوم في النهاية. ثم توقظه عند صلاة «الستار» فتنظف بنطلونه بالفرشاة وتعقد له ربطة عنقه وتذهب معه الى الكنيسة مستندة الى ذراعه، وهي تسير في زهو وفخار كزهو الأمهات وفخارهن. وكان والداه يكلفانه ان يأخذ شيئا ما، سواء أكان علبة من السكر الأسمر او شيئا من الصابون، أو شراباً مسكراً، واحياناً كانا يكلفانه حتى الحصول على المال ان استطاع.

ولقد كان يأخذ معه أسماله البالية لترتقها له خالته التي كانت ترضى بهذا العمل. ولقد غمرتها السعادة لأنها وجدت أن ذلك يضطره الى المجيء، فيكون ذلك فرصة سانحة لها فتكتحل عيناها برؤ يته.

وفي شهر آب (أغسطس) أثناء العطلة الكبرى؛ أخذه والده في رحلة بحرية. وكانت عودة الطفلين بول وفرجيني الى منزلهما أثناء العطلة الصيفية تخفف عن فيليسيتيه ما تجد.

ولكن بول أصبح غريب الأطوار، متقلب الأهواء. أما فرجيني فقد تجاوزت السن التي تسمح بمخاطبتها في صيغة المفرد، وذلك ما أوجد بينها وبين الخادمة فيليسيتيه حرجاً لم تجد منه مخرجاً.

ولقد سافر فيكتور على التوالي الى بلدة مورليه، ثم الى دونكرك، فالى برايتون وفي طريق عودته من كل هذه المناطق كان يحمل معه الى خالته هدية من الهدايا. ففي المرة الأولى كانت هديته اليها علبة مصدفة، وفي الثانية أهدى اليها فنجاناً للقهوة، أما في المرة الثالثة فقد أهدى اليها تمثالاً مصنوعاً من خبز الأبازير.

لقد أصبح فيكتور وسيماً، واعتدلت قامته، ثم إن شاربيه

أخذا بالظهور قليلاً، أما عيناه فيبدو فيهما الصدق وسلامة الطوية - إنه يعتمر قبعة من الجلد صغيرة فيردها الى الخلف كالطيار. ولقد كان فيكتور يسلي خالته بأن يقص عليها قصصاً تشوبها ألفاظ يستعملها البحارة في حديثهم.

وفي يوم من أيام الاثنين الموافق للرابع عشر من شهر تموز (يوليو) ١٨١٩، صرح فيكتور بأنه سيقوم برحلة بحرية طويلة. وفي ليلة ما بعد اليوم التالي سافر على متن السفينة هونفلور ليلتحق بسفينته الصغيرة التي كانت ستبحر من ميناء الهافر بعد فترة وجيزة من الزمان. ولربما استغرقت رحلته تلك عامين كاملين.

وإن تصور فيليسيتيه لهذه المدة الطويلة ملأ نفسها هماً وغماً.

ومساء الأربعاء، انتعلت فيليسيتيه حذاءها لكي تودع ابن اختها فيكتور وسارت تطوي المسافات طياً، فقطعت مسافة أربعة فراسخ في طريقها الى هونفلور.

وعندما وصلت فيليسيتيه الى تمثال المسيح المصلوب، خلت وجهتها، فاتجهت يمنةً بدل أن تتجه الى اليسار. سارت في

طريقها هذه تائهة لتجد نفسها وسط ورشات العمل، فعادت أدراجها.

ولقد اضطرها الناس الذين كانت تسير بالقرب منهم الى أن تحث خطاها، فدارت حول الحوض الغاص بالسفن، وكانت تصطدم في سيرها بالحبال. ثم انحدرت في هذه المسيرة

الشاقة التائهة لترى نفسها وسط أنوار متشابكة متداخلة. وظنت فيليسيتيه أنها جنت وفقدت صوابها عندما خيل اليها أنها ترى في السماء جياداً.

وفي نهاية الرصيف كانت تسمع صهيل عدد من الجياد. فلقد أثار فيها البحر الذعر والخوف، حيث كانت إحدى الرافعات ترفع هذه الجياد لتضعها في أحد المراكب الراسية.

كان المسافرون يتدافعون وسط براميل عصير التفاح، وسلال الجبن وأكياس الحبوب، بينما تسمع أصوات الدجاج وهي تصيح وسط هذه الجلبة العامة على رصيف الميناء.

كان القبطان يصرخ بالمسافرين، بينما كان بحار صغير في الخامسة عشرة من عمره يستند بمرفقه الى مقدم السفينة غير

عـابىء بكل مـا يجـري من حـولـه. وصـرخت فيليسيتيـه: « فيكتورا » لأنها لم تتمكن من معرفتـه وسط ذلك الـزحام الشديد من المسافرين. فرفع رأسه، وهوت فيليسيتيه ساقطة أرضاً عندما سحب البحارة سلم السفينة من فرط بثها وحزنها على فراق ابن اختها الوشيك.

خرجت السفينة التي كانت النسوة يجررنها بالحبال وهن يغنين، خرجت من الميناء فأخذ قفصها يقضقض بينما الأمواج ترتطم بمقدمتها.

واستدار الشراع، فلم يعد يرى المرء أحداً من المسافرين. وكانت تبدو على صفحة مياه البحر التي أضفى عليها القمر لوناً فضياً لامعاً، بقعة سوداء تختفي رويداً رويداً الى أن غارت وتوارت عن الأنظار تماماً.

وأرادت فيليسيتيه أثناء مرورها من أمام الجلجلة أن تتوجه الى الله بالدعاء راجية إياه أن يكلأ بحفظه. ويحوط بعنـايته الشخص الأثير على قلبها أكثر من أي إنسان آخر. وظلت

تدعو طويلاً واقفة، وقد تبلل وجهها بالعبرات واتجهت بعينيها الى السماء رانية الى السحاب.

كانت المدينة تغط في نوم عميق، ورجال الجمارك يتجولون في أقطارها وأرجائها، بينما تتساقط المياه من السفينة عبر هويس الماء فيها دونما انقطاع، مصحوبة بضجة صاخبة وكأنها احد الشلالات.

ودقت الساعة معلنة الثانية عشرة عند منتصف الليل.

فردهة الاستقبال في الميناء ربما لا تفتح أبوابها قبل حلول النهار. وإن أي تأخير في عودة فيليسيتيه الى بون لوفيك من شأنه أن يملأ نفس السيدة أوبان سخطاً وغيظاً.

كان على ذلك المسكين أن يقضي إذاً الشهور الطوال على متن السفينة ووسط الأمواج المتلاطمة. وإن رحلات فيكتور السابقة لهذه الرحلة لم تكن لتثير خوف فيليسيتيه.

كان المسافر يذهب الى إنكلترا أو مقاطعة بريتانيا ثم يعود منها. لكن أميركا والمستعمرات والجزر، جميع هذه المناطق بلاد نائية تقع في أجزاء غير آمنة من الكرة الأرضية، وعلى الطرف الآخر من العالم.

منذ ذلك الوقت أخذت فيليسيتيه تفكر في ابن اختها دون سواه ممن أحبت من سائر البشر. في الأيام المشمسة كانت تقلق عليه من الظمأ وعندما يكون الطقس عاصفاً تخاف عليه من

الصواعق، وعندما تسمع صرير الرياح التي تكتسح في طريقها ألواح الأردواز يخيل اليها أن ابن أختها فيكتور قد خر صريعاً، وأن هذه العاصفة نفسها هي التي جندلته على رأس أحد الصواري المحطمة، وقد تدثر برداء من الزبد الأبيض. ويخيل اليها أحياناً أخرى أن الوحوش المفترسة الكاسرة قد افترسته عندما كان يمر في إحدى الغابات. وما هذا التصور الا مستوحى من ذكرياتها في كتاب الجغرافيا المصورة. وكان يخيل اليها أيضاً أن فيكتور مشرف على الهلاك وهو ملقى على شاطىء بحر خلو من البشر. ولكن فيليسيتيه لم تتحدث رغم ذلك كله عن أحوالها النفسية القلقة التي كانت تصور لها وتوحي اليها كل هذه الأوهام.

وكانت السيدة أوبان تمر بمثل هذه الحالات النفسية فينشغل بالها على ابنتها فرجيني.

فلقد كانت الراهبات تجدن أن فرجيني هذه يملأ قلبها العطف والحنان، وأنها مرهفة الاحساس. فإن أقل انفعال يثير أعصابها. وكان لزاماً عليها أن تترك البيانو.

ولقد طلبت السيدة أوبان من الدير أن يكون لها مراسلات منتظمة مع ابنتها فرجيني.

وفي صباح يوم كانت تنتظر فيه إحدى الرسائل من ابنتها، لم يأت ساعي البريد، فأخذت تمشي في غرفة الاستقبال مترددة

بين الأريكة والنافذة. لقد عيل صبرها وهي تنتظر ساعي البريد الذي لم يأتِ قط.

كان ذلك حقاً شيئاً غير طبيعي ولا مألوف! فمنذ أربعة أيام انقطعت الأخبار عنها!

ولكي تهون فيليسيتيه عليها وتسري عن نفسها قالت لها:

ـ « أنا، يا سيدتي، لم أتلق أية رسالة منذ ستة أشهر! . . . »

فقالت لها سيدتها:

ـ « ممن لم تتلقي أية رسالة؟ . . . »، فأجابتها فيليسيتيه بهدوء:

ـ « ولكن. . . من ابن اختي! » فأجابتها سيدتها:

ـ « آه! إبن أختك! »

واستأنفت السيدة أوبان ترددها القلق بين الأريكة والنافذة رافعة كتفيها وكأنها تقول لفيليسيتيه: ـ « ما كنت لأفكر فيه! . . . ثم ما همني؟نوتي معدم، تشرفنا! . . . بينما ابنتي يا إلهي! . . . .

ورغم أن فيليسيتيه رضعت لبان القسوة والجفاء في حياتها، إلا انها امتلأت غيظاً من السيدة أوبان وما تلبثت في غبظها إلا قليلا، فنسيت كل شيء.

أما السيدة أوبان فقد كان يبدو لها أنها إن جنت وفقدت

صوابها، فلن يكون ذلك بالأمر الخطير إذا ما قيس بابنتها. ولقد كان اهتمامها يتوزع حسب قسمة عادلة بين كل من ابنها بول وابنتها فرجيني، وتربط بينهما برباط قلبي واحد.

أخبر الصيدلي الخادمة فيليسيتيه بأن السفينة الشراعية التي تقل ابن اختها فيكتور في سفره وصلت الى هافانا، وبأنه قرأ هذا الخبر في إحدى المجلات. وبسبب ما تشتهر به هذه البلدة من اللفافات الضخمة من التبغ، كانت فيليسيتيه تتصور أن الناس هناك لا هم لهم سوى التدخين، وأن فيكتور يسير بين العبيد وقد لفته سحب كثيفة من دخان تلك اللفافات. وأخذت تطرح أسئلة كثيرة من مثل:

« هل يقدر المرء أن يعود من ذلك البلد عند الحاجة عن طريق البر؟ ». و « ما هي المسافة التي تفصل فيكتور عن بون لوفيك؟ ».

ولكي تحصل على أجوبة، طرحتها على السيد بـوريه. فتناول هذا دفتر الخرائط وشرع يشرح لها عبر خطوط الطول ما طرحته من تساؤلات. ولقد ارتسمت على ثغره ابتسامـة مدعية حيال ما أصاب فيليسيتيه من دهشة وذهول.

وأشار أخيراً بحمالة قلمه الى نقطة سوداء ضمن بقعة بيضاوية الشكل لا تكاد ترى بالعين المجردة أو تدرك.

وأضاف قائلاً لفيليسيتيه - « أنظري »، فانحنت على الخريطة تحدق حيث أشار.

كانت تلك الشبكة الملونة من الخطوط ترهق نظرها دون أن تفيدها علماً بأي شيء، بينما طلب إليها السيد بوريه أن تفصح عما يزعجها، فرجته أن يدلها على البيت الذي يسكن فيه فيكتور. فرفع بوريه يديه الى أنفه وعطس ثم ضحك ضحكاً عظيماً، ذلك بأن مثل هذه البراءة كان مدعاة لفرحه وحبوره. ولم تكن فيليسيتيه تفهم ذلك أو تدرك له سبباً. فلقد كان ذكاؤها محدوداً الى درجة كبيرة، ذلك بأنها ربما كانت تتوقع أن ترى صورة ابن اختها ذاتها على الخريطة.

وكان قد مضى على ذلك خمسة عشر يوماً عندما دخل ليبار الى المطبخ وسلمها رسالة من والد فيكتور. فلجأت فيليسيتيه الى سيدتها لكي تقرأها لها لأنها لم تكن تعرف القراءة.

كانت السيدة أوبان تعد زردات كنزة صوف، فوضعت هذه جانباً ثم فضت الرسالة وانتفضت قائلة فيليسيتيه بصوت خفيض وهي تحدجها بنظرات عميقة:

- « إنها مصيبة يُزف خبرها اليك... إبن اختك »

لقد مات فيكتور. ولم تذكر الرسالة أية تفاصيل أخرى. فوقعت فيليستيه على الكرسي من هول المفاجأة ووقع الصدمة،

وأطبقت جفنيها اللذين أصبح لونهما بلون الورد في الحال وكانت تردد بين حين وآخر قولها: « أيها الولد الصغير المسكين! أيها الولد الصغير المسكّين! » كانت تردد هذه العبارة وقد طأطأت رأسها وارتخت يداها وجمدت عيناها. فنظر اليها ليببار ملياً مصعداً آهات حرى، بينما السيدة أوبان ترتجف قليلاً.

وعرضت هذه على خادمتها المفجوعة فيليسيتيه أن تذهب الى تروفيل لكي تقابل اختها هناك. فردت فيليسيتيه بإشارة من يدها تعبر من خلالها عن عدم رغبتها في ذلك.

وساد المكان هدوء تام. ثم رأى ليببار أنه من المناسب أن ينسحب من هذا الموقف، فقالت فيليسيتيه:

ـ « هذا شيء لا أهمية له بالنسبة اليهم ».

وطأطأت رأسها من جديد، وأخذت ترفع الإبر الطويلة من على طاولة العمل.

ومرت نسوة في فناء البيت يحملن نقالة يقطر منها ماء يرشح من ثياب مغسولة. وعندما رأتهن فيليسيتيه من زجاج النافذة، تذكرت غسيلها الذي نضحته في المساء والذي ينبغي أن تنظفه بالماء في ذلك اليوم، فخرجت من البيت لتقوم بهذا العمل.

كان اللوح الخشبي والبرميل اللذان تستعملهما في غسلها للثياب، كانا على شاطىء نهر توك، فألقت فيليسيتيه صرة من

القمصان على ضفة ذلك النهر، ثم رفعت كميها وأخذت القضيب الذي تحرك به غسيلها وبدأت عملية الغسل.

كانت الضربات القوية من قضيبها تسمع في كل البساتين الواقعة بجوار ذلك المكان. وكانت الحقول مقفرة، والرياح تحرك مياه النهر.

ومن على مسافة غير بعيدة تدلت أعشاب كثيفة الى النهر فغمرتها مياهه وبدت كأنها شعور تدلت من رؤوس تحملها جثث هامدة طافية على سطح الماء.

كظمت فيليسيتيه شعورها بالألم على فقدان ابن اختها فيكتور. لكنها بقيت محافظة على رباطة جأشها الى أن حل المساء. كانت تسترخي في غرفتها لتنام منبطحة على بطنها وقد دست وجهها في الوسادة ووضعت قبضتيها على صدغيها.

وبعد مضي وقت طويل جداً عرفت فيليسيتيه ملابسات وفاة ابن اختها من القبطان عينه الذي كان مسؤولاً عن فيكتور.

افتصد فيكتور كثيراً في المستشفى من أجل إجراء الفحوصات اللازمة على الحمى الصفراء. وكان يشرف على علاجه أربعة أطباء في آن معاً.

وتوفي فيكتور في الحال، فقال رئيس الفريق الطبي في المستشفى:

ـ «هذه ضحية أخرى تذهب بسبب هذا المرض!».

كان أهل فيكتور يعاملونه دائماً بكثير من القسوة. وكانت خالته تفضل ألا تراهم. وهم من جهتهم لم يقوموا بأية مبادرة في هذا الشأن، وذلك إما سهواً وإهمالاً، أو تصلباً وقسوة وكلاهما من شيم البؤساء المعدمين.

كانت فرجيني تضعف شيئاً فشيئاً. فلقد كانت تشعر بضيق في صدرها، وتصيبها الحمى بشكل دائم، وينتابها السعال، بالإضافة الى البقع الجلدية التي ظهرت على وجنتيها والتي كانت تشير الى وجود مرض داخلي.

وكان الطبيب بوبار قد نصح لها بأن تقيم في الريف، فعزمت السيدة أوبان على الانتقال بها فوراً الى البيت الريفي بعيدة عن مناخ بون لوفيك. واتفقت مع مؤجر للسيارات على أن يأخذ فرجيني كل ثلثاء الى الدير.

ففي حديقة البيت شرفة يرى منها نهر السين. وكانت فرجيني تتنزه في هذه الشعبة من النهر فتطأ قدماها أوراق الكرمة المتساقطة على ضفته.

ومرات كانت تحملها أشعة الشمس المتسللة عبر الغيوم على أن تطرف بعينيها عند رؤيتها للمراكب الشراعية التي تتراءى لها من بعيد.

كذلك الأمر عندما ترى الأفق برمته بدءاً من قصر تانكار فيل، وحتى المنارات القائمة في ميناء الهافر. وبعد ذلك تأخذ

قسطاً من الراحة فتجلس تحت العرزال القائم هناك.

كانت والدتها السيدة أوبان قد حصلت على برميل من نبيذ مالاغا الممتاز، فشربت منه مقداراً ضئيلاً جداً ساخرة من فكرة احتمال ترنحها من السكر، واستعادت همتها ونشاطها.

وانصرم الخريف في هدوء وسلام، بينما فيليسيتيه تطمئن السيدة أوبان وتخفف من قلقها على ابنتها. لكنها، وهي في طريقها ذات مساء الى المنطقة المجاورة لتشتري ما يلزم من حاجات، صادفت عربة السيد بوبار متوقفة أمام الباب، فانطلق هذا الطبيب نحو بهو البيت بينما السيدة أوبان تعقد ربطة قبعتها، فقالت له:

« ناولني المدفأة ومحفظة النقود والقفازات، أسرع! »

ثم قالت له إن فرجيني تعاني من نزلة صدرية، ويمكن أن تكون حالتها ميؤوساً منها. فأجابها الطبيب بقوله:

« لا، ليس بعد! ».

وصعدت السيدة أوبان وابنتها الى العربة، بينما كتل الثلج تتساقط مدومة محومة. وكان الليل قاب قوسين أو أدنى من إرخائه سدوله. أما الطقس فقد كان بارداً جداً.

وأسرعت فيليسيتيه الى الكنيسة لتوقد فيها شمعة، ثم جرت وراء العربة فأدركتها بعد ساعة من الزمان، فقفزت الى المقعد الخلفي وجلست على جدائله، فإذا بخاطر يخطر لها

فتحدث نفسها قائلة:

« إن البهو لم يغلق! فلو دخل اليه اللصوص، ماذا يكون موقفي؟ »

قالت ذلك في نفسها ونزلت من العربة.

ومنذ فجر اليوم التالي قصدت الى الطبيب الذي عاد الى الريف، ثم بقيت ملازمة للفندق معتقدة أن أناساً مجهولين سيحملون اليها رسالة من الرسائل.

وفي نهاية الأمر ركبت عربة قاصدة « ليزيو » في ساعة مبكرة من النهار.

كان الدير يقع في آخر أحد الأزقة المتعرجة. وفي وسط هذا الزقاق تناهت الى سمع فيليسيتيه أصوات غريبة، وسمعت الناقوس يقرع قرعاً حزيناً، وكأنه يعلن موت واحد من الناس. ففكرت وقالت في نفسها:

« هذا القرع الحزين ليس له علاقة بنا بل بسوانا من الناس »

فسحبت فيليسيتيه بعنف مقرعة الباب. وبعد بضع دقائق سمع صوت شخص يجر نعاله، وانشق الباب قليلاً فظهرت من خلفه إحدى الراهبات، فقالت وقد بدت على وجهها امارات الندامة وانسحاق القلب: « توفيت قبل قليل ». وفي الوقت نفسه تضاعفت دقات ناقوس القديس ليونار التي تبث الحزن والحداد. ووصلت فيليسيتيه الى الطابق الثاني، فرأت،

وهي لا تزال عند عتبة الباب، فرجيني ممددة على ظهرها، ويداها مضمومتان الى بعضهما، فاغرة فاها، بينما تطوح رأسها الى الوراء يعلوه صليب أسود قائم بين الستائر الجامدة التي كانت أقل صفرة من وجه فرجيني. وكانت السيدة أوبان الجالسة عند أسفل السرير تطلق زفرات كأنها حشرجة إنسان يلفظ أنفاسه الأخيرة على فراش الموت.

وكانت رئيسة الدير واقفة في الجهة اليمنى من الغرفة بينما ثلاثة شمعدانات على الخزانة الصغيرة ترسم بقعاً حمراء. وكان الضباب يضفي على النوافذ لوناً فضياً ناصعاً. ونقلت الراهبات السيدة أوبان الى مكان آخر بعيداً عن الغرفة الحزينة.

ولم تترك فيليسيتيه الطفلة المسجاة على فراش الموت، بل مكثت معها ليلتين كاملتين . ولقد كانت الأدعية عينها والصلوات ذاتها التي رددتها من قبل. كما كانت ترش الماء المبارك على الأغطية، ثم تعود لتجلس فتتأملها وتتفرس في وجهها.

وفي نهاية الليلة الأولى لاحظت أن وجهها اصطبغ باللون الأصفر، وأن شفتيها أصبحتا زرقاوين، وأنفها انقبض، وعينيها غارتا. فقبلتها مرات كثيرة.

وما كان لفيليسيتيه أن تعتريها الدهشة العظيمة لو أن فرجيني عادت وفتحت عينيها. بالنسبة الى نفوس من مثل نفس فيليسيتيه، فإن الخارق من الأمور هو شيء بسيط جداً. فلقد

لبست ثيابها، ولفت الصغيرة في أكفانها ثم وضعتها في نعشها ووضعت تاجاً على رأسها بعد أن بسطت لها شعرها ذا اللون الأشقر الذي كان طوله غير عادي بالنسبة الى سنها، فقصت فيليسيتيه منه خصلة كبيرة ودست نصفها في صدرها عازمة ألا تمسها أبداً.

وأعيد جثمان الصغيرة فرجيني الى بون لوفيك حسب رغبة السيدة أوبان التي كانت تسير وراء النعش المحمول على عربة مغلقة.

وبعد القداس الذي أقيم عن روحها كان قد بقي من الوقت ثلاثة أرباع الساعة للوصول إلى المقبرة.

كان بول يسير على رأس المشيعين منتحباً، بينما يسير السيد بوريه في المؤخرة. ثم يأتي الوجهاء من السكان، فالنساء اللواتي يرتدين العباءات السوداء، وأخيراً فيليسيتيه.

كانت هذه تفكر في ابن اختها فيكتور الذي لم تستطع أن تكرمه كل ذلك الاكرام الذي تشهده الآن بعينها الاثنتين مما سبب لها مزيداً من الحزن وكأنها دفنت هي نفسها مع فرجيني في قبر واحد من فرط ما انتابها منه.

لقد كان يأس السيدة أوبان لا حد له. فللوهلة الأولى ملأها الغيظ والغضب على الله لأنه خيل اليها أنه جار عليها بأخذه لابنتها، هذه البنت البريئة التي لم ترتكب قط أياً من

الاعمال السيئة والتي يشع ضميرها وقلبها طهراً ونقاء ، يفعل الله بها ما فعل! لا!

كانت السيدة أوبان تتهم نفسها بالذنب والتقصير، وتريد أن تلحق بابنتها فتصرخ معبرة عن ضيقها وكربها وسط احلامها التي انهارت بفقدها لابنتها. عقدة الذنب هذه ناتجة من أنها كانت تعتقد انها كان عليها أن تأخذ ابنتها الى الجنوب فتعرضها على طبيب غير طبيبها، لعل في وسعه أن ينقذها.

وكان ثمة شخص يشكل لها هاجساً اكثر من سواه هو زوجها الذي كانت تراه عائداً من سفرة طويلة مرتدياً ثياباً كثياب البحارة، ويقول لها وهو يبكي إنه تلقى الأمر بأخذ فرجيني معه، عندئذ كانا يتباحثان بشأن إيجاد ملجأ لهما في مكان ما.

وفي إحدى المرات عادت السيدة أوبان من الحديقة مشوشة النفس مضطربة الذهن. وبعد قليل ظهر لها الأب والبنت أمام بعضهما لا يفعلان شيئاً سوى النظر إليها هي.

لقد بقيت في غرفتها جامدة هامدة لمدة طويلة استغرقت شهوراً، بينما خادمتها تعظها وتنصح لها بهدوء وتؤدة. ومن بين المواعظ والنصائح التي كانت تصغي اليها السيدة أوبان من خادمتها وجوب المحافظة على نفسها بنسيان همومها وأحزانها

لتبقى لابنها بول وحتى لابنتها في قبرها وفاء لذكراها وراحة لنفسها. فتجيب السيدة أوبان قائلة. وكأنها ثابت الى نفسها ووعيها بعد شرود وذهول:

« لذكراها؟ »، « آه! أجل! أجل! إنك لا تنسينها! » وتلك إشارة الى المقبرة التي منعت من زيارتها منعاً باتاً، بينما كانت الخادمة فيليسيتيه تقصد اليها في كل يوم.

وفي الساعة الرابعة تماماً كانت السيدة أوبان تمر في حواشي المنازل وتسلك طريق الساحل مصعدة، ثم تفتح الحاجز وتصل الى قبر ابنتها فرجيني. كان ذلك القبر عبارة عن عمود رخامي صغير ذي لون وردي، وبلاطة أسفله، وسلاسل حديدية حوله تحيط بجنينة صغيرة. وكانت الأجزاء المزروعة من الجنينة تختفي تحت غطاء من الزهور.

وكانت السيدة أوبان تسقي أوراقها، وتجدد ترابها، وتركع على ركبتيها لكي تقلب هذا التراب بشكل أفضل. فعندما تمكنت من المجيء لزيارة قبر ابنتها، شعرت بانفراج كربتها وبنوع من العزاء في فقد ابنتها.

ومضت السنون متماثلة ودون أن تسجل أي حدث جديد سوى عودة الأعياد الكبرى كعيد الفصح، وعيد الصعود، وعيد جميع القديسين. إنها حوادث داخلية تاريخية كانت في ما بعد مرجعاً يرجع اليه.

وهكذا، ففي العام ١٨٢٥ طلى اثنان من باعة الآنية الزجاجية بهو المنزل.

وفي العام ١٨٢٧ كادت قطعة من السقف أن تقتل رجلاً عند سقوطها في فناء البيت. وفي صيف ١٨٢٨ قدمت السيدة أوبان الخبز المبارك. وفي هذه الفترة تغيب السيد بوريه، وكان غيابه سراً غامضاً، بينما انفرط عقد من كانت تربطها بهم معرفة قديمة مثل غويو وليبيار، والسيدة لوشابتوا، وروبلين، والعم غرومنفيل الذي أصيب منذ زمن طويل بالشلل.

وفي إحدى الليالي زف سائق عربة البريد في بون لوفيك نبأ ثورة تموز (يوليو). وبعد أيام قليلة عين وكيل جديد للوالي هو البارون دولار سونيير القنصل السابق في اميركا والذي كان يسكن في بيته بالاضافة الى زوجته، امرأة اخيه مع بناتها الثلاث اللائي أصبحن يافعات.

كنت تراهن جالسات على العشب الأخضر يرتدين قمصاناً فضفاضة وكن يمتلكن عبداً أسود وببغاء. لقد زرن السيدة أوبان، ولم يفت هذه زيارتهن. وكانت فيليسيتيه تراهن عندما يظهرن من بعيد فتهرع الى سيدتها لتخبرها بمقدمهن. ولكن شيئاً واحداً كان يثير انفعالها وهو رسائل ابنها لها. هذا الابن لم يكن ليتخذ أية مهنة من المهن لكونه منهمكاً بارتياد الحانات.

وكانت تدفع له ما عليه من ديون، فيرتب على نفسه ديوناً

اخرى. وإن الآهات الحرى التي كانت تطلقها السيدة أوبان، وهي تحيك الصوف بالقرب من النافذة، كانت تبلغ مسامع خادمتها فيليسيتيه أثناء وجودها في المطبخ لتدير دولاب مغزلها.

كانت السيدة أوبان وفيليسيتيه تتنزهان معاً على امتداد المسافة التي يقوم فيها عريش البيت.

وكانتا تتحدثان دائماً عن فرجيني متسائلتين ما إذا كان شيء من الأشياء التي يريانها من شأنه أن يعجب فرجيني لو كانت على قيد الحياة، أو ما كان يمكن أن تقوله في مناسبة ما من المناسبات.

فكل أشيائها الصغرى كانت تملأ خزانة حائط صغيرة معلقة على جدار غرفة النوم المحتوية على سريرين. وقلما كانت السيدة أوبان تعاينها أو تقف عندها.

وفي يوم من أيام فصل الصيف اعتزلتها السيدة أوبان وتخلت عن الاهتمام بها، فطارت بضع فراشات منها.

كانت معاطف الصغيرة الفقيدة تشغل صفاً كاملاً في الخزانة تحت لوح خشبي عليه ثلاث لعب للأطفال وأطواق يعبث بها هؤلاء.

لقد أخرجت الوالدة المفجوعة وخادمتها التنانير والقمصان الداخلية لفرجيني وكذلك جواربها ومناديلها، أخرجتاها كلها

وفرشتاها على السريرين الموجودين في الغرفة ثم طوتاها مرة اخرى.

كانت الشمس تضيء هذه الأشياء وتوجه الانتباه الى البقع والطيات التي تكونت أثناء ارتداء الصغيرة فرجيني لها في حياتها.

كان الهواء لازوردياً حاراً، بينما كان شحرور من الشحارير يغرد، وكل شيء يغوص في حلاوة ما بعدها حلاوة، وطلاوة أحسن بها من طلاوة.

لقد وجدتا قبعة صغيرة من المخمل، كستنائية اللون، ذات وبر طويل، ولكنها وجدت وقد أكلها العت حتى أتى عليها كلها. فطالبت بها فيليسيتيه لنفسها. وشخصت عينا كل منهما في عيني الأخرى وقد امتلأت بالدموع ثم فتحت سيدتها ذراعيها فألقت الخادمة نفسها لتتلقفها هاتان الذراعان؛ وتعانقتا عناقاً خفف عنهما ما كانتا تكابدانه من الآلام والأحزان التي وحدت بينهما وجمعت قلبيهما.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تتعانقان فيها طوال مدة وجودهما مع بعضهما، ذلك بأن السيدة أوبان كانت ذات طبيعة سوداوية عدوة للاشراق والانشراح. فشكرتها فيليسيتيه على ذلك العناق وكأنها تشكر لها يداً بيضاء طوقت عنقها بجميلها وإحسانها. ومنذ ذلك الحين أصبحت فيليسيتيه تكن لسيدتها

كل محبة وإخلاص وتفان، كما أصبحت تكن لها احتراماً دينياً.

وتنامت سلامة قلب الخادمة وتعاظم حنانها. فعندما تسمع في الشارع طبول فوج من الجيش في استعراض عسكري، تقف أمام الباب حاملة إبريقا من عصير التفاح لتسقي منه الجند.

ولقد عالجت اشخاصا مصابين بمرض الكوليرا، وكانت تبدي نحو البولونيين كل عطف وعناية إلى درجة أن واحدا منهم أعلن رغبته في الزواج منها، ولكن ذلك لم يتم بسبب حصول شيء أثار غضب فيليسيتيه. ذلك انها بينما كانت عائدة ذات صباح من الصلاة، وجدته في المطبخ، حيث دخل إليه وهيأ لنفسه طعاما جعل يتناوله بأعصاب هادئة باردة. ويأتي بعد البولونيين الأب كولميش، وهو رجل عجوز ارتكب الكبائر والفظائع عام ١٨٩٣.

كان يعيش على شاطى النهر فوق أنقاض زريبة للخنازير. وكان الأولاد ينظرون إليه خلسة عبر شقوق الجدار، ويقذفونه بالحجارة فتستقر على حصيرته. لقد كان يعتاده زكام شديد باستمرار. شعره طويل غاية في الطول، وجفناه حمراوان كأنهما شعلة ملتهبة من نار، بينما في ذراعه بثر أكبر من رأسه حجما. لقد أعطته فيليسيتيه ثيابا داخلية وحاولت أن تنظف له كوخه

الحقير. كانت تفكر في أن تسكنه في المخبز دون أن يكون في ذلك إزعاج لسيدتها.

وعندما انفقأ البثر كانت تضمده له كل يوم وتحمل إليه أحيانا شيئا من الحلوى. كما أنها كانت تجلسه في الشمس على كيس من القش بينما العجوز المسكين، وهو يرتعد كالمقرور، يشكر لها صنيعها الطيب وأياديها البيضاء بصوت خبت فيه جذوة الحياة. وكان يمد كلتا يديه إليها كلما راها تبتعد عنه، وكأنه يخشى أن تضيع منه ويفقدها. وتوفي المسكين فأوصت شخصا ليقيم له قداسا من أجل راحة نفسه.

وفي ذلك اليوم وقع لها حادث سعيد، ففي ساعة العشاء جاء العبد الذي يعمل خادما عند السيدة دولار سونيير ممسكا بيده قفص الببغاء وعصا القفص وقفله، حاملا بطاقة من البارونة إلى السيدة أوبان تعلمها فيها أنه بما أن زوجها قد رقي الى منصب الوالي، فإنهم سوف يسافرون عند حلول المساء. ورجتها أن تقبل الببغاء ذكرى منها إليها وعربونا على احترامها لها.

لقد كان هذا الطائر يملك على فيليسيتيه تفكيرها وخيالها منذ وقت طويل، ذلك بأنه أتى من أميركا فهذه الكلمة «اميركا» كانت تذكرها بابن شقيقتها فيكتور إلى درجة دفعتها

للسؤال عن أخباره لدى العبد. حتى أنها قالت في إحـدى المرات:

-«إن سيدتي هي التي ستسعد باقتناء هذا الطائر!»

فاعاد الخادم العبد ما قالته فيليسيتيه على مسمع سيدته التي تخلصت من الببغاء بهذه الطريقة لأنها لا تستطيع أن تأخذها معها في سفرها.

٤

كانت الببغاء تسمى لولو. جسمهـا أخضر، وأطـراف أجنحتها رمادية، بينما جبهتها زرقاء، وحنجرتها ذهبية. ولكن هوسا مرهقا يتملكها يتمثل في أنها تعض القضيب الذي تقف عليه في قفصها، وتنتف ريشها، وتبعثر قاذوراتها، وتريق الماء من الحوض الصغير داخل القفص.

لقد كانت بتصرفاتها هذه مصدر إزعاج للسيدة أوبان، فما كان منها إلا أن قدمتها هدية إلى فيليسيتيه، فتعهدتهـا هذه بالتعليم إلى أن أصبحت تردد بعد وقت قصير من ذلك هذه الكلمات:

« صبي لذيذ! خادم، سيد! أحبيك يا مريم! »

كـان مكانها لـدى الباب. وكـان الكثيرون من النـاس تعروهم الدهشة والذهول لأن الببغاء لم تكن تستجيب للاسم جاكو. ووجه الغرابة في هذا هو أن جميع الببغاوات تدعى جاكو.

كانوا يشبهـونها بالـدجاجـة الروميـة حينا، وبقـطعة من

الحطب حينا آخر. وكان ذلك بمثابة طعنات خنجر تتلقاها فيليسيتيه في صدرها.

إنه عناد غريب ذلك الذي تمارسه لولو في تصرفاتها وردود فعلها ؛ فإنها تمسك عن الكلام منذ اللحظة الأولى التي ينظر إليها الناس فيها.

بيد أنها كانت تبحث عن رفيق لها يؤنسها في وحدتها ؛ ذلك بأنه بينما كانت بنات عائلة روشفوي والسيد دوهو بوفيل ، وزوار آخرون من مثل الصيدلي أنفروي ، والسيد فارين ، والقبطان ماتيو، بينما كان هؤلاء جميعا يلعبون الورق، كانت لولو تضرب الزجاج بجناحيها وتقوم بحركات بلغت في عنفها وهياجها حدا جعل التفاهم بين اللاعبين ضربا من المستحيل.

وكانت تبدو لها صورة وجه بوريه مضحكة من غير شك. فما إن تراه حتى تأخذ بالضحك بكل ما أوتيت من قوة. وكانت قهقهاتها تتردد أصداؤها في فناء البيت، فيجلس الجيران على نوافذهم ويأخذون بالضحك هم أيضا. وكان السيد بوريه يتسلل خفية عبر الجدار حاجبا بقبعته الصورة الجانبية من وجهه فيبلغ النهر ثم يدخل عبر باب الحديقة حادجا الببغاء بنظرات جامدة لا أثر فيها للعطف

وكان أجير الجزار قد نقف لولو بإصبعه عندما دست رأسها في سلته ومنذ ذلك الحين راحت لولو تحاول جاهدة أن تقرصه

في كل مرة ممسكة إياه من قميصه. وهدد فابو بأن يلوي لها عنقها مع أنه لم يكن ذلك الشخص الفظ الغليظ القلب، برغم الوشم البارز في ذراعيه، وبرغم ندمائه ذوي البدانة الظاهرة؛ بل بالعكس! فإنه كان يميل إلى الببغاء إلى درجة أنه أراد أن يعلمها الشتائم حبا بالمرح الذي كان طبعا من طباعه. فوضعتها فيليسيتيه في المطبخ خوفا عليها من هذه الأساليب

وانقطعت سلسلتها الحديدية فأخذت الببغاء تنتقل داخل البيت من مكان إلى مكان. وعند هبوطها السلم كانت تسند إلى درجاته القسم المعقوف من منقارها، وترفع قائمتها اليمنى أولا ثم تعقبها باليسرى.

كانت فيليسيتيه تخشى عليها من أن يسبب لها هذا النوع من الرياضة الدوار.

ومرضت الببغاء فلم تعد تستطيع أن تتكلم أوتتناول طعاما. كان تحت لسانها طبقة من اللحم كالتي تصيب الدجاج أحيانا. ولقد برئت الببغاء من ذلك بعدما انتزعت لها فيليسيتيه هذه القشرة بأظافرها.

وفي احد الأيام نفث السيد بول دخان لفافته الضخمة من التبغ في منخريها. وفي يوم آخر بينما كانت السيدة لورمو تستثيرها بطرف مظلتها، خطفت الببغاء حلقتها منها وطارت بعيدة عنها.

وضعتها فيليسيتيه مرة على العشب لتريحها، ثم غابت عنها دقيقة ولما عادت إليها لم تجدها! فبحثت عنها بادىء الأمر بين الأشجار، ثم عند شاطىء النهر، وأخيرا في السقوف غير سامعة لكلام سيدتها وهي تصرخ قائلة لها.

ـ«إحذري! أنت مجنونة!»

ثم فتشت في كل بساتين بون لوفيك دون جدوى. وبلغ بها الاهتمام بالببغاء والعثور عليها درجة جعلتها توقف المارة لتسألهم عنها قائلة:

« ألم تروا بطريق الصدفة ببغائي؟ »

وكانت تصفها لمن لا يعرفها. وفجأة ظنت أنها رأت خلف المطاحن عند أسفل الساحل، شيئا أخضر يرفرف بجناحيه. وأكد لها تاجر خردوات متجول أنه رآها منذ وقت قصير في ميلان، وتحديدا، في منزل الأم سيمون. فهرعت إليه. ولم يكن أحد يعرف ماذا تقصد.

وعادت في النهاية من هناك، وقد انهكها التعب، وتمزق نعلاها شر ممزق، بينما الحزن الشديد يترع نفسها ويثقل كاهلها. وجلست في وسط المقعد بجانب سيدتها تقص عليها ما بذلته من محاولات للعثور على الببغاء.

وفجأة حط جسم خفيف على كتفها.

ماذا دهاك يا لولو؟! ربما كانت تتجول في الجوار.

واصيبت فيليسيتيه بالنزلة الصدرية من فرط ما انتابها من البرد.

وبعد مدة قصيرة أصيبت بألم في أذنيها. وبعد سنوات ثلاث أصابها الصمم وأصبحت تتحدث بصوت مرتفع حتى وهي داخل حرم الكنيسة.

ومع أن خطاياها كان يمكن أن تنتشر في كل زاوية من زوايا الأبرشية دون أن تلحق بها العار ومن غير أن يكون لها أثر ضار على الناس، إلا أن الكاهن رأى من المناسب ألا يسمع اعترافها إلا في غرفة الأمتعة المقدسة.

وإن ما كانت تسمعه فيليسيتيه من دوي وهمي في أذنيها كان ثالثة الأثافي في عدم استقرارها النفسي. وغالبا ما كانت تقول لها سيدتها:

«يا إلهي! كم أنت غبية!» فتجيبها فيليسيتيه وهي تبحث عن شي ما حواليها:

-«نعم، يا سيدتي!»

وإن دائرة تفكيرها الضيقة أصلا، ضاقت أكثر فأكثر. وإن صلصلة الأجراس وخوار الثيران لم يعد لهما وجود بالنسبة إليها. فجميع الكائنات تقوم بوظائفها وأعمالها بصمت أشبه

بصمت القبور، إلا أن جلبة واحدة وحيدة كانت تصل إلى مسامعها وتضج في أذنيها، ألا وهي صوت الببغاء.

كانت الببغاء، وكأنها تريد ان تسلي فيليسيتيه، تنقل اليها تكتكة مدور السفود، وصوت بائع السمك وهو ينادي على سلعته، واخيرا صرير منشار النجار القابع قبالتها. وكانت الببغاء تقلد السيدة اوبان وتقول على انغام دقات الجرس الصغير:

ـ«فيليسيتيه! أنظري من الباب! أنظري من الباب!»

ولقد دارت بين فيليسيتيه والببغاء حوارات كثيرة. فالببغاء تتلفظ بعبارات ثلاث من قاموسها اللغوي وترددها بصورة مرهقة للسامعين بينما تجيب فيليسيتيه على تلك العبارات بكلمات وعبارات مبتورة لفظا ومعنى، ولكنها كانت تفصح بها عن مكنونات نفسها بحرية وراحة نفسية. ففي توحدها وعزلتها كان هذا الطائر ابنا لها أو عشيقا. يتسلق أناملها ويعض شفتيها عضا خفيفا متكررا، ثم يتشبث بخمار كتفيها. ويختلج جانبا قبعتها وجناحا الطائر معا، بينما تطأطىء فيليسيتيه جبهتها هازة رأسها كما تفعل المرضعات بمن يرضعن.

وعندما كانت الغيوم تتراكم، والرعود تدوي وتقصف، كانت الببغاء تزقو وكأنها تستعرض في ذاكرتها شريطا عن الأمطار الهاطلة في الغابات التي رأت فيها أنوار الحياة.

وإن مياه الامطار في سيلانها كانت تهيجها وتثير أعصابها، فتبدأ بالتحويم هنا وهناك هائمة على وجهها، فتصعد إلى سقف الغرفة وتقلب كل شيء، ثم تذهب عبر النافذة إلى الحديقة لتضرب المياه بجناحيها وقائمتيها ومنقارها. ولكنها لا تلبث أن تعود أدراجها ممسكة بقضيب هو عبارة عن قطعة صغيرة من الحطب، فتقفز قفزات متكررة كيما يجف ريشها.

وفي صبيحة يوم ممطر من أيام الشتاء الرهيب من العام ١٨٣٧، بينما وضعت فيليسيتيه ببغاءها أمام المدخنة لتدفع عنها غائلة البرد، عادت لتجدها جثة هامدة وسط قفصها، رأسها إلى أسفل، وبراثنها عالقة بالاسلاك المعدنية للقفص. فلربما قتلها الاحتقان. ظنت فيليسيتيه أن سبب موتها تسمم أصابها بسبب تناولها لشيء من البقدونس.

وبرغم عدم توافر أي دليل على ما تقول، إلا أن شكوكها اتجهت إلى شخص السيد فابو.

بكت بحرارة متأثرة من قول معلمتها لها: «صبريها!»فاستشارت الصيدلي الذي كان يبدي عطفا كبيرا نحو الببغاء. فكتب كتابا إلى مدينة هافر. وتكفل فلاشر بهذا الأمر. ولكن فيليسيتيه قررت أن تحمل البريد بنفسها إلى هونفلور لأن العربة التي كان ينقل فيها الى هناك كانت تضيع منها أحيانا بعض الطرود على الطريق.

وتوالى مشهد أشجار التفاح المعراة من أوراقها على حواشي الطريق المؤدية إلى هونفلور. فالثلج يغطي الحفر، والكلاب تنبح حول المزارع، بينما يدا فيليسيتيه تحت كسوتها القصيرة، تسير منتعلة حذاء أسود وتحمل سبتا تضع فيه طعامها، تسير بخفة ورشاقة وسط الشارع المبلط. عبرت الغابة وتجاوزت في سيرها منطقة لوهوشين، ووصلت إلى سان غاتيان. أما الصندوق الحامل للبريد فقد كان محمولا على جياد تعدو خلف فيليسيتيه كالاعصار مخلفة وراءها سحبا كثيفة من النقع.

وانتصب الحوذي واقفا عندما وجد أن فيليسيتيه لا تهتم بهذا. وكان الحوذي المساعد يصرخ أيضا، بينما جياده الأربعة تسرع في عدوها دون أن يتمكن من كبح جماحها.

فالحصانان اللذان يسيران في المقدمة لمساها لمساً خفيفا. وهز الحوذي مقودهما هزة طرحتهما بعيدا عن الطريق. إلا أنه، وإثر ذلك، رفع ذراعه مغضبا فجلد فيليسيتيه بسوطه الكبير من بطنها حتى قفاها إلى حد بلغ في عنفه أن جعل فيليسيتيه تخر على الارض مغشيا عليها وتتمدد على ظهرها.

وعندما استعادت وعيها كانت أول حركة قامت بها أن فتحت سبتها وقالت في نفسها: لولو لم يحصل لها مكروه لحسن الحظ. وشعرت بحرقة تلسع خدها الأيمن. فوضعت يديها على

خدها فظهرت حمرتها، بينما الدماء تسيل منها. فجلست على متر من الحصباء ونظفت وجهها بمنديلها ثم أكلت كسرة من الخبز كانت تضعها في سبتها احتياطاً.

وكانت تتعزى عن جرحها بالتفرج على الببغاء.

وعندما وصلت الى قمة إكيموفيل، رأت أضواء منبعثة من بلدة هونفلور كأنها نجوم تلمع في حلكة الليل البهيم. وكان البحر يرى من بعيد بصورة غير واضحة.

وهنا استوقفتها ذكريات متعددة. فطفولتها البائسة وخيبة أملها في حبها الأول، ثم رحيل ابن اختها عن هذا العالم الى العالم الآخر، بالإضافة الى موت الطفلة فرجيني، كل تلك الذكريات الأليمة عاودتها كلها في وقت واحد فأحست كأن يداً غاشمة ظالمة تمتد الى عنقها فتخنق فيها أنفاس الحياة.

ثم أرادت أن تتحدث الى قبطان السفينة، فلقد أسرت اليه بتوصيات معينة دون أن تخبره بما هي مرسلة اليه.

واحتفظ فلاشر بالببغاء طويلاًوكان يعد باعادتها في الأسبوع القابل. وتمضي الأسابيع اسبوعاً إثر أسبوع والـوعد لا زال وعداً.

وبعد ستة أشهر أعلن عن إرسال صندوق وطوي حديث الببغاء كأن لولو لن تعود أبداً، وراحت فيليسيتيه تقول في نفسها: «ربما سرقها اللصوص مني!».

ووصلت الببغاء في نهاية الأمر، مشرقة زاهية؛ قائمة على غصن شجرة مثبت على قاعدة من خشب الأكاجو، بينما إحدى قائمتيها في الهواء، أما رأسها فمائل، وتعض على جوزة طلاها المقشش بالذهب حباً منه بالعظمة والفخامة.

حبستها فيليسيتيه في غرفتها التي كانت تستقبل فيها القليل النادر من الناس، والتي كانت تشبه المصلى داخل كنيسة، وتشبه السوق التجارية في آن معاً. فلقد احتوت هذه الغرفة على خليط عجيب من الأشياء.

وكان فيها كذلك خزانة كبيرة تسبب إرباكاً عند فتح الباب.

وقبالة النافذة المطلة على الحديقة، كان هناك كوة مستديرة تشرف على فناء البيت.

وترى أمام السرير طاولة عليها إناء ماء، ومشطان، وقطعة زرقاء من الصابون في صحن انثلمت حافته. وكانت على الجدران سبحات وميداليات وجرن صغير من قشر جوز الهند. وعلى خزانة الثياب الداخلية المغطاة بقماشة، علبة مصدفة أهداها اليها فيكتور. كما يمكنك أن ترى فيها مرشة ماء وكرة ودفاتر للكتابة، بالإضافة الى كتاب للجغرافيا المصورة، وزوج من الأحذية، وقبعة مخملية صغيرة معلقة من شريطها على مسمار المرآة.

وكانت فيليسيتيه تذهب بهذا النوع من الاحترام مدى قصياً جعلها تحتفظ بأحد معاطف سيدها أيضاً. وكل ما أصبح بالياً قديماً من حوائج السيدة أوبان تأخذه فيليسيتيه فتضمه الى موجودات غرفتها. وهكذا، كنت ترى الأزهار الاصطناعية على حاشية خزانة الثياب الداخلية، وصورة الكونت دارتوا داخل تجويف الكوة الكائنة في الغرفة.

ركزت لولو على جسم المدخنة الداخل في الشقة بواسطة لوح من الخشب صغير. وفي كل صباح كانت فيليسيتيه عند استيقاظها من النوم تراها مع الخيوط الأولى للفجر، فتتذكر الأيام الخالية والأعمال التافهة في أدق تفصيلاتها، تتذكر كل ذلك دون أن يثير في نفسها ألماً، بل تراها وقد عمرت الطمأنينة قلبها وملأت السكينة نفسها.

كانت تعيش في همود يشبه همود المروبصين.

كانت تعيش بهذه الصورة لأنها لا تتصل بأحد بل تمكث متوحدة منفردة.

ومراسم الاحتفالات بخميس الجسد كانت تبعث فيها النشاط فتدب فيها الحياة من جديد، فتذهب قاصدة الجيران وتبحث عندهم عن مشاعل وحصر صغيرة من القش لكي تزين بها المذبح الذي نصب في الشارع.

وفي الكنيسة كانت تتأمل دائماً الروح القدس فلاحظت أن

فيه شبهاً ما للببغاء. وبدا لها هذا الشبه أكثر بروزاً على صورة للروح القدس يعلو رأسه إكليل من الشوك، وتمثل معمودية الرب. فبأجنحتها الأرجوانية وجسمها الزمردي كانت تشبه حقاً صورة لولو.

لقد علقت لولو محل صورة الكونت دارتوا بحيث ان فيليسيتيه كانت تراهما معاً بنظرة واحدة، فاتحدا في ذهنها.

واكتسبت الببغاء صفة مقدّسة، قداسة العلاقة بالروح القدس، الذي بدوره صار أقرب الى عقل فيليسيتيه وادراكها. وكانت فيليسيتيه تعتقد أن الأب لم يكن ليختار يمامة كيما يصبر عن نفسه، لأن هذه وأمثالها من الحيوانات ليس لها صوت معبر مفصح، فهي عجماء لا تتكلم. ولكن الأب اختار أحد أجداد لولو.

وكانت فيليسيتيه تصلي وهي تنظر الى الصورة، لكنها تستدير نحو الببغاء بين آونة وأخرى. بل ورغبت في أن تكون في عداد الراهبات، غير أن السيدة أوبان ثنتها عن عزمها هذا.

ولقد برز حادث له أهميته وخطره، ألا وهو زواج بول. فبعدما كان بادىء الأمر مساعداً للكاتب العدل، وبعدما اشتغل في التجارة ومصلحة الجمارك، بدأ يبذل مساع ليعمل في مصلحة المياه والحقول. وفي السادسة والثلاثين من عمره اكتشف طريقه فجأة وكأن وحياً هبط عليه من السماء: مكتب

التسجيل. فأظهر فيه مواهب بلغت من الرفعة والقدر درجة جعلت أحد المدققين في هذه المصلحة يقدم له ابنته واعداً إياه بحمايته. فأخذ بول الفتاة الى أمه لتقابلها وتتعرف عليها.

فعابت عادات بون لوفيك وأبدت قدراً من التكلف والتصنع ظهر في تصرفاتها وأقوالها. فلقد جرحت فيليسيتيه بكلامها الجاف. وأحست السيدة أوبان بالارتياح عند مغادرتها لبيتها.

وفي الأسبوع التالي وردت أنباء عن وفاة السيد بوريه في أحد فنادق مقاطعة بريتانيا المنخفضة، وتأكدت شائعة راجت عن انتحاره.

وثارت الشكوك حول استقامته وأمانته. وراجعت السيدة أوبان على أثر ذلك حساباتها. وما لبثت أن تبينت سلسلة أعمال شنيعة مشينة قام بها، من الاستيلاء على فوائد الدخل المستحقة، الى مبيعات الخشب التي تمت في الخفاء، الى الايصالات المزورة التي كان يمنحها... إلخ. وبالإضافة الى ذلك كله، كان له طفل غير شرعي، و« علاقات مع إحدى فتيات عائلة دوزوليه ».

هذه الأعمال الخسيسة الحقيرة أحزنت السيدة أوبان كثيراً.

وفي شهر آذار (مارس) من ١٨٥٣ إنتابها ألم في صدرها. وأحست كأن لسانها تغطيه طبقة من الدخان. ولم تجد العلقات

التي تستخرج الدماء الفاسدة، في تسكين ما كانت تشعر به من ضيق في صدرها، فلفظت أنفاسها الأخيرة في الليلة التاسعة لإصابتها بهذا المرض، وكان لها من العمر اثنان وسبعون عاماً تماماً.

كان من يراها يعتقد أنها أصغر من سنها لشعرها البني الذي تحيط ضفائره الصغيرة بوجهها الشاحب والذي تبدو عليه بقعة صغيرة كأنها أثر من آثار الجدري.

القليل من الأصدقاء أسفوا لفقدها، ذلك بأن تصرفاتها كان يشوبها الكبر والاستعلاء اللذان أبعدا عنها الكثير من معارفها.

ولقد بكتها فيليسيتيه لا كما تبكي الخادمة مخدومتها. وإن السيدة أوبان بموتها قبل خادمتها، أوقعت أفكار الأخيرة في البلبلة وأسلمتها الى الاضطراب والفوضى النفسية. كما أن هذا الأمر بدا لفيليسيتيه منافياً لنظام الأشياء، كما بدا لها فظيعاً وغير مقبول.

وبعد عشرة أيام من وفاتها، وهي المسافة ما بين بيزنسون وبون لوفيك جاء الورثة الى بيتها، فبحثت الكنة في الدروج واختارت من الأثاث ما أعجبها، وباعت ما بقي منه، ثم عادوا جميعاً الى مكتب التسجيل.

لقد أخذوا مقعد السيدة المريح ومنضدتها الصغيرة

ومدفأتها، إضافة الى الكراسي الثمانية. ووضعت مكان الصور التي أخذها الورثة مربعات صفراء. وحمل الورثة معهم السريرين وفراشهما. ولم يعد يرى في خزانة الحائط أي شيء من أغراض فرجيني كلها!

صعدت فيليسيتيه طوابق المبنى وهي سكرى من الحزن والغم.

وفي اليوم التالي وجد إعلان معلق على الباب، فأسر الصيدلي اليها حديثاً مفاده أن البيت معروض للبيع، فترنحت فيليسيتيه واضطرت الى الجلوس من هول ما سمعت.

فإن الذي كان يؤسفها بشكل أساسي هو تركها لغرفتها المريحة للولو الى حد بعيد. ولقد أخذت تتضرع الى الروح القدس وترفع اليه أكف الدعاء ملقية على غرفتها نظرة فيها كل الهم والألم النفسي المبرح. واكتسبت فيليسيتيه عادة وثنية هي الركوع أمام الببغاء أثناء صلاتها ودعائها.

وكانت الشمس المتسللة عبر كوة الغرفة تلقي بأشعتها على عين لولو الزجاجية أحياناً فتفجر منها شعاعاً عظيماً يضيء بنوره ما أظلم من الغرفة وما حولها، فتغرق فيليسيتيه في نشوة عظيمة غامرة.

وكان لها ريع بقيمة ثلاثمئة وثمانين فرنكاً أوصت به اليها سيدتها الفقيدة. بينما كان البستان يعطيها الخضر على أنواعها.

أما فيما يتعلق بالثياب فإنها كانت تقتني منها ما يكفيها مؤونة كسوتها حتى آخر يوم في حياتها. وكانت توفر الإضاءة فتنام وقت حلول الغسق. وقلما كانت تخرج الى السوق، وذلك حتى لا تمر بدكان ذلك التاجر الذي يعرض بعض القطع من الأثاث القديم.

ومنذ اللحظة التي ابتليت فيها بفقد رشدها وصوابها، أصبحت تجر ساقها خلال سيرها.

وحيث ان همتها في العمل قد ضعفت وتضاءلت، فإن الأم سيمون التي أخفقت في تجارتها وأفلست، كانت تأتي كل صباح فتقطع لها الحطب وتضخ الماء اللازم لاستعمالها اليومي.

لقد ضعف بصرها، ولم يعد يفتح مصراع واحد من النوافذ. ومرت السنون الطوال، لكن البيت لم يؤجر ولم يبع. ولم تكن فيليسيتيه تطالب بأي تعويض لها عن خدمتها في بيت مخدومتها السيدة أوبان خوفاً من أن تسرح من الخدمة.

أخذت ألواح خشب السقف تهترىء، وطال فصل الشتاء برمته كانت المياه المتساقطة منها تبلل وسادتها بقطراتها المتواصلة.

وبعد عيد الفصح بصقت دماً. عند ذلك هرعت الأم سيمون الى الطبيب. وأرادت فيليسيتيه أن تعلم ما بها، ولكن كلمة واحدة فقط بلغت مسامعها لأنها تعاني من الصم الشيء

الكثير وكأن في أذنيها وقراً. هذه الكلمة التي سمعتها عن مرضها هي: « ذات الرئة ». ذلك الداء كانت تعرف ما هو، فأجابت بهدوء:

« آه! مثل سيدتي »

قالت هذه العبارة وهي تجد أنه من الطبيعي أن تلحق بسيدتها.

ولقد أزفت ساعة إقامة المذابح. فالمذبح الأول كان لا يزال عند أسفل الساحل، والثاني أمام البريد، والثالث وسط الشارع تقريباً.

وكان الأخير موضع منافسات كثيرة. واختير أخيراً لإقامة المذبح فناء بيت السيدة أوبان.

واشتدت الحمى على فيليسيتيه، وضاق صدرها أكثر فأكثر بأنفاسها.

كانت فيليسيتيه تمتلىء غماً واكتئاباً لكونها لم تفعل شيئاً من أجل المذبح، فلو وضعت فيه على الأقل شيئاً ما! وفكرت عند ذلك بالببغاء.

إلا أن جيران السيدة أوبان اعترضوا على إقامة المذبح في بيت الأخيرة، وقالوا إن ذلك ليس مناسباً. ولكن الكاهن أعطى الإذن بإقامته هناك، فسعدت فيليسيتيه بذلك سعادة

غامرة الى درجة أنها رجت الكاهن أن يقبل لولو التي هي ثروتها الوحيدة عندما يدركها الموت.

فمن يوم الثلثاء الى يوم السبت، وعشية خميس الجسد، إنتابها السعال بشكل أعظم من المألوف. وعند المساء انقبضت أساريرها والتصقت شفتاها بلثتها، وأصبحت تتقيأ مرات متعددة.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي أرسلت في طلب أحد الكهنة لشعورها بحالة من الضعف العام والتدهور الصحي الخطير.

وخلال مسحة المرض التي يقوم بها الكاهن في مثل هذه الحالات كان يحيط بفيليسيتيه ثلاث نساء مسنات. وأعلنت فيليسيتيه أنها تريد أن تتحدث الى فابو، فوصل هذا في ثياب العيد الى حيث ترقد، وصل سيىء المزاج متضايقاً من هذا الجو المفجع. قالت له فيليسيتيه، وقد بذلت جهداً بيناً عندما بسطت اليه ذراعيها:

« إغفر لي، فلقد كنت أعتقد أنك أنت الذي قتل البيغاء ».

ما معنى مثل هذه الأقاويل وتلك الشائعات؟ رجل مثله يتهم بجريمة قتل؟ وامتلأت نفس فابو غيظاً وسخطاً، فأراد أن يحدث ضجة احتجاجاً على ما سمع، إلا أنهم قالوا له: « لقد

فقدت فيليسيتيه رشدها، وإنك لترى ذلك بأم عينك »!

كانت فيليسيتيه توجه كلامها من وقت لآخر الى الأشباح. فابتعدت النسوة اللائي كن يحطن بها، وتناولت « الأم سيمون » طعام الغداء.

وبعد ذلك بقليل أخذت لولو وأدنتها من فيليسيتيه وقالت لها:

« هيا! قولي لها وداعاً »!

ومع أن تلك الببغاء لم تكن جيفة، إلا أن الديدان نهشت جسمها وتحطم أحد جناحيها، وخرج القطن المحشو به بطنها. ولكن فيليسيتيه وقد أصبحت عمياء، طبعت قبلة على جبينها وأخرى على وجنتيها. ثم أخذت « الام سيمون » الببغاء لتضعها على المذبح.

٥

كانت تفوح من الأعشاب رائحة الصيف، والذباب يطن فوقه، بينما تضفي أشعة الشمس على النهر تألقاً والتماعاً، وتجعل ألواح الأردواز حارة ساخنة. وكانت الأم سيمون التي عادت الى غرفتها، تستسلم لنوم هادىء وعميق.

لقد أيقظتها دقات الأجراس بينما كان المؤمنون خارجين من صلاة الستار. وتوقف هذيان فيليسيتيه. فلقد كانت ترى مراسم الاحتفال لمجرد أن تفكر فيه، وكأنها تشارك بنفسها في ذلك الاحتفال.

كان جميع التلاميذ والمنشدون يسيرون على الأرصفة، بينما تتقدم وسط الشارع شرطة الكنيسة الذين يحملون بلطات ذات مقابض طويلة وقواس الكنيسة الذي يحمل صليباً ضخماً. ويأتي بعد ذلك المدرس الذي يراقب الأولاد، والراهبة التي تعتني وتهتم بالفتيات الصغيرات. وكانت ثلاث فتيات من ألطف الفتيات وأظرفهن، مجعدات شعورهن كالملائكة، كن يقذفن بتبلات من الورد في الفضاء، بينما نائب الكاهن يخفف من صوت الموسيقى الصادحة، كما يرى اثنان من حاملي المباخر

يستديران عند كل خطوة نحو القربان المقـدس الذي يحمله الكاهن وهو في ثوبه الكهنوتي الجميل، يظلله سرادق مؤلف من قنطرة من المخمل يحمله أربعة من أعضاء المجلس الملي.

ويتدافع السائرون في مؤخرة الموكب الاحتفـالي كالمـوج المتلاطم بين الشراشف البيضاء التي تغطي جدران البيوت. ووصل الموكب الى أسفل الساحل.

كان العرق البارد يبلل صدغي فيليسيتيـه، والام سيمون تجفف لها عرقها بقطعة من القماش وهي تقول في نفسها إنه لا بد لها من المرور من هنا في يوم من الأيام. بينما ازاداد الجمهور جلبة بلغت في حدتها مبلغاً عظيماً في فترة من الفترات. ثم أخذت هذه الجلبة بالابتعاد بينما هز صوت إطلاق النار ألواح الزجاج، وكان مصدره سائقو عربات الخيل أثناء تحيتهم لمعرض القربان المقدس.

وأدارت فيليسيتيه حدقتيها لتقول بأقوى نبـرة استطاعت التحدث بها عبر صوتها الخفيض، قالت، وقد قاست ألوان العذاب بسبب الببغاء: «هل هي بخير؟».

ودخلت مـرحلة النزع لتعـالج سكـرات الموت. كـانت حشرجتها تعلو شيئاً فشيئاً، فترفع أضلاعها.

وظهرت فقاعات من الزبد عند زاويتي فمها، بينما كانت ترتجف كل أعضاء جسمها.

وبعد قليل سمع صوت الآلات الموسيقية الصادحة، وأصوات الأولاد الواضحة، وبعدها صوت الرجال البعيد الخفيض.

ومن وقت الى آخر راح كل صوت يسكت، ووقع الأقدام يحدث ضجة تشبه وقع قوائم أحد القطعان على الأعشاب.

وظهر رجال الدين في بهو البيت، بينما صعدت الام سيمون على كرسي لتصل الى الكوة المستديرة المطلة على البهو، فتشرف منها على المذبح. وكانت تتدلى على المذبح أشرطة للزخرفة والزينة، بينها في وسطه صندوق صغير يضم بقايا من رفات القديسين، وفي الزوايا وضعت أشجار الليمون. وعلى طول الموكب مشاعل فضية وآنية خزفية صينية تنتصب فيها نباتات دوار الشمس والزنبق وعود الصليب ونوع من الأزهار يعرف بالقميعات، بالإضافة الى باقات من أزهار الأرطنسية.

هذه المجموعة من الألوان المتألقة كانت تنحدر بشكل مائل من الطابق الأول من البناء وحتى البساط الممتد على بلاط أرض الفناء. وجملة أشياء نادرة كانت تلفت النظر وتغتصب الانتباه اغتصاباً.

وفي وسع المرء أن يرى سكرية قرمزية يعلوها تاج من أزهار البنفسج وبلورات من ثريا مصنوعة من حجر الألانسون تلتمع على العشب الأخضر، بالإضافة الى شاشتين صينيتين

تعرضان مشاهدهما.

ولولو المختبئة تحت الورود والمدفونة فيها لم يكن يظهر منها سوى جبهتها الزرقاء التي تشبه رصيعة من اللازورد.

ثم ترى أعضاء المجلس الملي وجوقة المنشدين، والأولاد يقفون صفوفاً منتظمة على جنبات البهو الثلاثة.

لقد اجتاز الكاهن درجات معدودة، إجتازها بسكينة وتؤدة، فوضع على صفحة من القماش المخرم شفاعه الذهبي الضخم الذي يشع منه النور.

وجثا الجميع على ركبتيهم، وساد المكان صمت كصمت القبور، بينما المباخر المنطلقة لتنشر بخورها في الجو تنزلق على سلاسلها الحديدية. وتصاعد بخار لازوردي في غرفة فيليسيتيه، فقدمت منخريها الى الأمام لكي تستنشقه بلذة صوفية ومتعة روحانية. ثم أطبقت جفنيها بينما كانت البسمة تعلو شفتيها.

وتباطأت دقات قلبها، فكنت تسمعها دقة دقة. وفي كل مرة تصبح أكثر غموضاً واستغلاقاً، وأعظم لطفاً وجمالاً، كالعين التي يجف ماؤها، وكالصدى الذي يتبدد.

وعندما صعدت فيليسيتيه آخر نفس من أنفاسها ظنت أنها ترى في السماء التي فتحت أبوابها شيئاً قليلاً، ظنت أنها ترى فيها ببغاء عملاقة تحوم فوق رأسها.



الدكتور آشيل كليوفاس فلوبير ، وكان ذا تأثير عظيم على شقيقه غوستاف

اسطورة القديس
جوليان المضياف (لوسبيتاليه)



زجاجية من وحي أسطورة القديس جوليان (كاتدرائية روان)

١

كان والدا جوليان يسكنان أحد القصور وسط الغابات وعلى منحدر إحدى الروابي. وكانت الأبراج الأربعة لهذا القصر ذات سقوف استدقت رؤوسها وغطتها رقاقات من الرصاص، بينما قاعدة جدرانه ترتكز على قطع من الصخور تنحدر انحداراً شديداً الى قعر خزانات تجميع المياه الزائدة.

وكان بلاط باحة القصر نظيفاً نقياً، نظافة بلاط كنيسة ونقاءه.

وترى ميازيب طويلة ترمز بشكلها الى التنين، أشداقها متجهة الى الأسفل، وتلقي في الحوض بمياه الأمطار المتساقطة. بينما ترى على حواشي النوافذ وفي بقية طوابق ذلك القصر زهرات من الحبق أو من رقيب الشمس تتفتح في آنية من الخزف الملون.

وهنالك حزام آخر مؤلف من الأوتاد، يحتوي أولاً على روضة تضم أشجار الفاكهة. ثم ترى حديقة أزهار تحتوي على مجموعات منها وترسم بأشكالها أرقاماً. ثم تجد كرماً معترشاً ومقاعد مُتحركة لتنشق الهواء المنعش -نارج الأماكن

المغلقة. كما يوجد بالإضافة الى ذلك مكان تجري فيه لعبة الكروكي من أجل الترفيه عن القائمين على خدمة القصر.

ومن الجهة الأخرى تجد وجاراً لأحد الكلاب، وزرائب، ومخبزاً ومعصرة ومخازن للحبوب. كما تجد مرعى من العشب الأخضر وقد أخذ بالنمو حوالى القصر. وهو مغلق أيضاً بسياج منيع من الأشواك.

كان الناس يعيشون بأمن وسلام منذ وقت طويل الى حد أن المشبك لم يعد يُخفض.

كانت الحفر مليئة بالمياه، وطيور السنونو تبني أعشاشها في شقوق مرامي السهام، بينما أحد النبالين يتجول على الجدار الفاصل بين متراسين من متاريس الحصن، وحالما ترسل الشمس أشعتها المحرقة يعود الى مرقبه في القصر وينام كالناسك في صومعته.

وفي الداخل كانت الأدوات الحديدية من زينة وغيرها، تشع كالمصابيح. وكان أثاث القصر من بسط وغيرها من المفارش يقي من فيه غائلة البرد الشديد. أما خزانات الأمتعة فكانت ممتلئة بالملابس المختلفة عن آخرها. بينما براميل النبيذ مكدسة في أماكن تخزين المؤن، والصناديق المصنوعة من خشب البلوط تقضقض وتحدث قرقعة من فرط ما حوت من أكياس الفضة.

وترى في غرفة السلاح بين الرايات المرفوعة ومشافر الحيوانات المتوحشة أسلحة تعود الى مختلف العصور والأمم بدءاً من راجمات العمالقة الى رماح القرامطة فالى سيوف الإسماعيليين القصيرة، وانتهاء بزرد النورمنديين.

ولقد كان في وسع السفود الرئيسي في مطبخ القصر أن يدور حاملاً ثوراً من الثيران.

وكانت الكنيسة الخاصة القائمة داخل القصر فخمة ككنيسة ملك من الملوك. كذلك تجد فيه فرناً للتجفيف على الطريقة الرومانية يقع في مكان منزوٍ منه. ولكن سيد القصر الطيب استغنى عنه معتبراً أن هذه عادة من العادات الوثنية.

وكان يتجول في أرجاء قصره بشكل دائب دائم متسربلاً بعباءة مبطنة بفراء الثعلب كيما يفصل في ما ينشأ من قضايا ومشاكل بين خدم القصر، وينهي ما ينشأ من خصومات ومنازعات بين جيرانه.

وفي فصل الشتاء كان يراقب كتل الثلج المتساقط أو يستمع الى من يقرأ له القصص. ثم إنه فور انتهاء الشتاء، ومع الأيام الأولى من أيام الطقس الجميل، يذهب للتجوال في الطرقات على متن بغلته فيمتع الطرف بمنظر القمح المخضوضر، ويتحدث مع الفلاحين فيسدي لهم من النصائح ما يسدي.

وبعد كثير من المغامرات العاطفية تزوج بفتاة ذات حسب ونسب . كانت ناصعة البياض، رزينة، تمتلىء زهواً بنفسها وفخاراً. وكانت رؤوس طنطورها تلامس القسم الأعلى المقابل للعتبة من الأبواب، بينما ذيل معطف الجوخ الذي ترتديه تجره وراءها مسافة ثلاث خطوات من مواطىء قدميها ولقد كان يسود قصرها نظام دقيق كما هو الحال في أحد الأديرة.

كانت توزع العمل كل صباح على خادماتها، وتراقب المربَّيات على أنواعها وتغزل على مغزلها أو تطرز أغطية للمذبح.

ومن فرط ما دعت ربها وتضرعت اليه فقد رزقها طفلاً ذكراً، فأقيمت الأفراح العظيمة، ومدت الموائد الفاخرة التي استمرت ثلاثة أيام وأربع ليال، على أضواء المشاعل وأصوات القيثارات، وفوق اوراق الشجر المنثور على الأرض إحتفالاً بالمناسبة العظيمة.

وقدم في هذا الاحتفال ما ندر من التوابل وعز نظيره منها في العالمين. بالإضافة الى دجاج كالخراف في حجمها.

ومن أجل التسلية والترويح عن النفس خرج أحد الأقزام بعدما فرغ من أكل فطيرة محشوة من الفطائر، بينما لم تعد تكفي قدور الطعام لأن جمهور المدعوين كان يزداد باطراد، فاضطروا لأن يتناولوا المشروبات في الأبواق والقبعات.

ولم تحضر النفساء هذه الاحتفالات، بل كانت تبقى في سريرها وقد ران عليها الهدوء وغشيتها السكينة.

واستيقظت من نومها ذات مساء فتراءى لها وكأن شبحاً يتحرك تحت شعاع من أشعة القمر، دخل من النافذة. وكان ذلك الشبح يتمثل في هيئة رجل هرم يرتدي ثياباً خشنة سمراء كثياب النساك، وفي خاصرته مسبحة، وعلى عاتقه خرج. وفي عبارة موجزة، فإن كل علامات الزهد والنسك كانت بادية عليه. فتقدم من مخدعها وقال لها من غير أن يحرك شفتيه:

- «قري عيناً وافرحي أيتها الأم! فإن ابنك سيصبح قديساً!».

وكادت الأم أن تصيح، إلا أن الشبح ارتفع في الهواء بلطف واختفى منزلقاً على شعاع القمر.

وصدحت الأغاني التي يرددها المحتفلون المتحلقون حول المائدة، صدحت بشكل أقوى من ذي قبل. وسمعت الأم أصوات الملائكة، ثم عاد رأسها ليستقر على وسادتها التي كان يغطيها عظم أحد الشهداء ضمن إطار من العقيق الأحمر.

وفي اليوم التالي سئل الخدم عن مشاهداتهم، فأعلنوا أنهم لم يروا ناسكاً. وسواء كان ذلك حلماً أم حقيقة فإنه لا بد له من أن يكون اتصالاً سماوياً. ولكن كان همها ألا تفصح بشيء عما رأته أو تراءى لها مخافة أن يتهمها السامعون بالزهو والكبرياء.

وانصرف المدعوون في ساعة مبكرة من النهار، بينما كان والد جوليان خارج الباب السري للقصر حيث رافق آخر المدعوين إليه.
وفجأة إنتصب أمامه أحد المتسولين وقد غطى الضباب جسده.

كان ذلك المتسول أفاقاً متشرداً ذا لحية مجدولة، وفي ذراعيه حلقات فضية، بينما حدقتاه كأن فيهما ناراً متقدة. ولقد قال، وهو يتلجلج، كلمات لم يكملها، وكأنه يردد وحياً أو إلهاماً:

ـ « آه! آه! ابنك.... كثير من الدماء... كثير من المجد!... سعيد دائماً! عائلة إمبراطور».

واختفى المتسول بين الاعشاب وتلاشى بينما كان منحنياً ليلتقط صدقة تصدق أحد المحسنين بها عليه.

ونظر صاحب القصر الطيب يمنة ويسرة، وناداه بأقصى ما لديه من قوة فلم يرد عليه أحد! كانت الرياح تهب، وضباب الصباح يمر سريعاً ولقد عزا صاحب القصر هذه الرؤيا الى ما ألم به من التعب وما حل برأسه من الألم والصداع لأنه لم ينم سوى جزء يسير من الوقت. وقال في نفسه: « إذا تحدثت بذلك بين الناس فإنهم سيسخرون مني ».

ورغم ذلك فإن الأنوار السنية والمجد الساطع بجلاله وجماله المكتوب لابنه في لوح القدر كانت تخطف بصره وتبهره رغم أن الوعد الذي قطع له بشأن ابنه لم يكن واضحاً، ولم يكن هو نفسه متيقناً من سماعه.

واحتفظ الزوجان بهذا السر لنفسهما . لكنهما كانا يمحضان ولدهما جوليان نصيباً متساوياً من حبهما ويخصانه برعاية لا حدود لها، بالإضافة الى احترامهما له باعتبار أن الله يصنعه على عينه وتحت رقابته ورعايته.

كان فراش جوليان محشواً بريش النعام، ويضاء فوقه دائماً مصباح يشبه اليمامة، بينما تهدهده في سريره ثلاث حاضنات.

كان يبدو كأنه يسوع صغير ملفوفاً في قماطه الذي شد عليه، ووجهه الوردي، وعينيه الزرقاوين، ومعطفه المقصب بخيوط الحرير والذهب، وطاقيته المزدانة بالجواهر والحلي. ولقد انشقت لثته عن أسنان من غير أن يبكي ولو مرة واحدة.

ولما بلغ السابعة من عمره علمته والدته الغناء ورفعه أبوه على جواد ضخم ليصنع منه رجلاً شجاعاً. وكان الطفل جوليان يضحك شعوراً منه بالارتياح والسرور. وما لبث أن أصبح على معرفة تامة بكل ما يتعلق بالجياد التي تستعمل في القتال. ولقد علمه ناسك عجوز تميز بعلمه الغزير الخط المقدس والأرقام العربية، كما علمه الحروف اللاتينية وكيف يرسم لوحات جميلة ظريفة على جلد العجل الدقيق الرقيق.

كان جوليان والناسك يعملان معاً في أعلى برج صغير في منأى عن الصخب والضوضاء.

وحالما ينتهي الدرس ينزل الناسك وتلميذه جوليان الى

حيث يدرسان الأزهار وهما يتجولان بينها زهرة زهرة.

وكانا يريان أحيانا، وهما يسيران بعيداً في بطن الوادي، صفاً طويلاً من الدواب يقودها رجل يسير على قدميه، ويرتدي لباساً شرقياً.

وظن صاحب القصر أنه تاجر يتجر بهذه الدواب، فأرسل اليه خادماً من خدامه، فحول الرجل الغريب وجهة سيره وقد امتلأت نفسه ثقة واطمئناناً. وعندما أدخل ذلك الرجل الى ردهة الاستقبال في القصر أخرج من صناديقه قماشاً من المخمل والحرير، كما أخرج منها مجوهرات وعطوراً وأشياء فريدة لا نظير لها ولا يعرف أحد كيفية استعمالها.

وانصرف الرجل أخيراً وقد أحرز ربحاً وفيراً من غير أن يكابد مشقة ولا نصباً.

وأحياناً أخرى تأتي مجموعة من الحجيج فيقرعون الباب، عليهم ثياب بللها الماء، فيتصاعد منها البخار أمام الموقد وكأنه دخان.

وعندما يشبعون يروون ما حصل لهم أثناء السفر، ويقصون ما حدث في رحلاتهم الطويلة الحافلة بالمغامرات في البحر الهائج المزبد، وفي رمال الصحراء المحرقة كما يقصون ما عاينوا وشهدوا من شراسة الوثنيين ووحشيتهم، ويتحدثون عن مغاور سوريا وكهوفها، وعن المذود الذي ولد فيه يسوع المسيح وعن قبره في القدس الشريف. وبعد ذلك يعطون صاحب

القصر بعضاً من الأصداف التي حملوها معهم في معاطفهم.

وكثيراً ما كان صاحب القصر يولم لرفاقه القدامى في السلاح. لقد كانوا يتذكرون، وهم يشربون الخمر، حروبهم وانقضاضهم على الحصون تصحبهم دقات الطبول وأنغام الآلات الموسيقية المختلفة، كما كانوا يتحدثون عن الجراح العجيبة الغريبة التي تحدث إثر معركة من المعارك

كان جوليان يصغي اليهم ويطلق صيحة في إثر أخرى استهجاناً لما يسمع منهم من التفاصيل المذهلة. ولم يكن والده ليشكك لحظة واحدة في أن ابنه سيكون في مستقبل الأيام في عداد الفاتحين.

لكنه عند خروجه مساء ذلك اليوم من صلاة التبشير، وبينما كان يمر بين الفقراء الذين انحنوا له احتراماً، اغترف جوليان من كيس نقوده بعضاً منها بكثير من التواضع والنبل الى درجة أن والدته كانت تقدر أن تراه في ما بعد أسقفاً من الأساقفة.

كان مكانه في الكنيسة الصغيرة للقصر الى جانب والديه. ومهما كانت الفروض الدينية طويلة فإنه كان يظل في مصلاه راكعاً، وقلنسوته على الأرض، بينما يداه مضمومتان الى صدره.

وفي أحد الأيام شاهد، وهو يرفع رأسه أثناء القداس،

فأرة بيضاء صغيرة خارجة من ثقب في السور. لقد قفزت على الدرجة الأولى من المذبح. وبعد جولات معدودة عن اليمين وعن الشمال هربت من حيث جاءت. وإن مجرد التفكير في أنه سيراها الأحد التالي كان يعكر مزاجه. وبالفعل، فقد عادت يوم الأحد لتفعل مثل ما فعلت من قبل.

كان جوليان ينتظر الفأرة كل يوم أحد، فلقد تضايق منها وأضمر في نفسه الحقد عليها، فصمم على الخلاص منها.

لقد وضع على درجات المذبح فتاتاً من الحلوى، وأغلق الباب، وتمركز أمام الثقب الذي اعتادت الفأرة الخروج منه والعودة عبره، وقد أمسك بيده قضيباً صغيراً. وبعد وقت قصير بدا خطمها الوردي ثم ظهر جسمها برمته فضربها جوليان ضربة خفيفة وبقي مذهولاً امام هذا الجسم الصغير الذي لم يعد يبدي حراكاً.

ولطخت نقطة من دم الفأرة إحدى البلاطات فمسحها جوليان بكمه سريعاً وألقى بالفأرة الى الخارج دون أن يروي لأحد من الناس شيئاً مما حدث.

وكانت أفراخ العصافير من كل صنف ولون تنقر الحبّ في البستان. وخيل الى جوليان أن يضع حبات من الكرسنة في إحدى القصبات المجوفة، وأن يتقدم حالما يسمع زقزقة أفراخ الطير هذه على إحدى الأشجار، يتقدم من هذه الشجرة بهدوء

ثم يرفع قصبته وينفخ فيها؛ وما إن فعل ذلك حتى تساقطت الطيور الصغيرة على منكبيه كأنها مطر منهمر، الى درجة أنه لم يتمالك نفسه من الضحك الذي هو عنوان لسعادته بنجاح مكيدته. وفي صباح أحد الأيام، بينما كان عائداً من ذلك البستان عبر الجدار القائم بين المتراسين، رأى على قمة السور حمامة ضخمة تمد عنقها نحو الشمس، فتوقف ليراقبها. وحيث إن الجدار في ذلك الموضع له فتحة، فإن قطعة من حجر تصادف وجودها تحت أصابعه، فأدار جوليان ذراعه قاذفاً بتلك القطعة الحمامة، فسقطت كتلة واحدة في الحفرة، فأسرع جوليان الى مكان سقوطها، وقد أصابه من الجراح ما أصابه لوجود الأشواك فيه. أسرع الى ذلك المكان باحثاً في كل شبر منه بخفة ورشاقة تفوقان خفة كلب صيد صغير ورشاقته.

كانت الحمامة تختلج وقد تحطم جناحاها، وعلق جسمها بشجرة من نوع جنبة الرباط. إلا أن بقاءها على قيد الحياة أثار غيظ الطفل جوليان فأمسك بخناقها ليخمد ما تردد فيها من أنفاس الحياة.

وإن اختلاجات الحمامة جعلت قلبه يخفق خفقاناً سريعاً وغمرته بلذة فريدة كانت تضج في ضلوعه.

وفي المساء، وأثناء تناول طعام العشاء، أعلن والد جوليان أنه في مثل سن ابنه على المرء أن يتعلم صيد الوحوش. وذهب

ليبحث عن دفتر للخط قديم، يحتوي، بطريقة الأسئلة والأجوبة؛ على عرض تفصيلي وشرح واف عن الصيد وأساليبه.

ففيه يطالع المرء أن معلم الصيد يعلم تلميذه فن ترويض الكلاب، وتدجين الصقور، ونصب الفخاخ ويعلمه كيف يعرف الأيل بروثه، والثعلب بآثاره، والذئب بما يحدثه على الأرض من خدوش بعد التبرز، والوسيلة الصالحة لتمييز مسالك الطرائد التي تعرف بآثار وعلامات مختلفة، كما يعلمه كيفية إخراجها من مخابئها، وأماكن وجود هذه المخابىء عادة، وما هي الرياح الأكثر ملاءمة للصيد بالاضافة الى تعداد الصيحات وأصول اختيار مراكز الصيد.

وعندما تمكن جوليان من حفظ هذه الأشياء برمتها ألف له والده مجموعة من كلاب الصيد. ففي بادىء الأمر كانت تلك المجموعة تتألف من أربعة وعشرين كلباً سلوقياً من بلاد البربر، أسرع من الغزلان عدواً، ولكنها عرضة لأن تهتاج وتستعر ثورتها.

ثم أضيف اليها سبعة عشر زوجاً من الكلاب البريتانية ذات الجلد الأحمر المرقط ببقع بيضاء، والتي لا تنخدع بحيل الطرائد ومكائدها، صدورها قوية ونباحها عظيم.

وكانت تضم هذه المجموعة التي شكلها والد جوليان لابنه

أربعين قشعاماً لمهاجمة الخنازير البرية ومداهمتها في مكامنها ومسالكها الخطرة. وكان يغطي جسمها وبر كثيف كالدببة. كما ضمت مجموعة جوليان كلاباً للحراسة ضخمة مخصصة لمطاردة الثيران البرية، يبلغ حجمها حجم الحمر تقريباً، لونها كالنار، وظهرها عريض، وعرقوبها قائم.

وكان جلد الكلاب الصغيرة السوداء يلمع كالحرير.

وفي باحة اخرى منزوية من باحات القصر راحت تنبح ثمانية كلاب بربرية، وهي حيوانات مرعبة تقفز فتبلغ الى بطن الفارس، ولا تخشى الأسود.

كانت هذه الكلاب تنبح فتهز سلاسلها الحديدية بعنف وتحرك حدقاتها بشكل دائري.

وهذه الكلاب كلها تقتات بخبز القمح، وتشرب في أجران حجرية، وتحمل أسماء رنانة.

وإن جماعة الصقور ربما تجاوز عددها مجموعة الكلاب الآنف ذكرها. وحصل على طيور الباز من الذكور الكائنة في بلاد القوقاز، وعلى الصقور الضخمة من بلاد بابل، ثم على نوع منها يعرف بالسنقر جاء به من ألمانيا. كما تم له الحصول على صقور جوالة ثم أسرها وهي على الصخور في شواطىء البحار الباردة، أو في البلاد البعيدة النائية.

كانت هذه المجموعة من الحيوانات المختلفة تسكن في

حظيرة مغطاة بالقش، تصطف جاثمة في مكانها وقد وضع أمامها تلاع من العشب من أجل أن تستعيد نشاطها وتقتات بين آونة واخرى.

ولقد صنعت أدوات مختلفة للصيد؛ من شباك جيبية وصنانير وفخاخ للثعالب. وكثيراً ما كان يجري في البرية تدريب الكلاب على اعتراض الطرائد وتثبيتها في مكانها، فكانت تنقض بسرعة فائقة على طرائدها وتثبتها في مكانها.

فبينما قادة كلاب الصيد يتقدمون شيئاً فشيئاً، وهم على صهوات جيادهم، بسطوا بحذر شبكة كبيرة على أجسامهم الممتنعة على الألم. وأشار هؤلاء الى الكلاب فأخذت تنبح. وكانت طيور الفرّي تحلق في الجو، فدعيت السيدات القاطنات في جوار ذلك المكان مع أزواجهن وأولادهن، وكذلك خادماتهن، فألقوا بأنفسهم جميعاً على الطيور وأمسكوها بسهولة ويسر.

وأحياناً أخرى كانت تقرع الطبول لإخراج الأرانب البرية من مكامنها، ويقع عدد من الثعالب في الحفر المفخخة، أو ينتفض أحد النباضات فجأة فيلتقط ذئباً من الذئاب من إحدى قوائمه.

ولكن جوليان أزرى بهذه المكائد السهلة التي لا تتطلب جهداً ولا مشقة، بل كان يفضل الصيد بعيداً عن الناس وعلى

صهوة جواده، مصطحباً صقره، وهو طير ضخم من بلاد ياجوج وماجوج.

بينما جلاجل الذهب تهتز في قائمتيه الزرقاوين، كان يتشبث جيداً بذراع سيده بينما هو يطوي من على جواده السهول والوهاد. فحل جوليان وثاقه وأطلقه على الفور. إن هذا الطير الشجاع يحلق في الفضاء كالسهم المنطلق، فترى فيه بقعتين غير متساويتين تدوران وتلتقيان، ثم تختفيان في أعالي الفضاء اللازوردي. وما يعتم الصقر حتى يعود فيهبط ومعه عصفور مزقه تمزيقاً، ثم يعود ليجثم على قفازات سيده الجلدية، وجناحاه يرتعشان. وبهذه الطريقة فقد سرق جوليان مالك الحزين، وحدأة، وغراباً ونسراً.

ولقد كان يحب أن يتبع كلابه وهي تعدو على سفوح الهضاب، وتجتاز السواقي وتتقدم نحو الغابة على أنغام البوق.

وعندما يبدأ الأيل بإطلاق صيحات الألم إثر عضات الكلاب، في ذلك الوقت بالذات يصرعه جوليان بخفة ورشاقة، ويشعر بالمتعة عندما يرى الكلاب الضخمة تنهشه وهي في سورة غضبها وعنفوان ثورتها فتقطعه إرباً إرباً.

وفي الأيام التي يغشى فيها الضباب السماء كان يختبىء جوليان في أحد المستنقعات ليرصد البط في وروده، وثعالب الماء، والبط البري الصغير.

وكان ينتظره منذ الفجر في أسفل درج المدخل ثلاثة من مروضي الجياد.

بينما حاول الناسك العجوز عبثاً أن يستدعيه بإشارة من يده عبرَ نافذة صغيرة انحنى فوقها. ولم يستدر جوليان ليرى تلك الاشارة لقد كان يمضي تحت وطأة الشمس المحرقة، والمطر المدرار، وفي الطقس العاصف، يمضي فيشرب من مياه الينابيع في راحة يده، ويأكل تفاحاً برياً وهو يقفز. وإذا تعب استراح في ظل شجرة من أشجار البلوط، ثم يعود ليلاً وقد غطاه الدم والوحل، وعلقت بشعره الأشواك وفاحت منه رائحة الحيوانات البرية المتوحشة، فلقد أصبح مثلها من فرط ما اعتادها وعندما تعانقه أمه يستجيب بفتور لهذا العناق، وقد بدا عليه أنه يحلم بأشياء بعيدة عميقة.

قتل جوليان عدداً من الدببة بطعنات من مديته، وعدداً من الثيران بضربات من فأسه، كما قتل عدداً من الخنازير البرية بواسطة إحدى حراب الصيد. وفي مرة من المرات دافع عن نفسه ضد عدد من الذئاب التي هاجمته، بواسطة إحدى العصي التي لم يعد يمتلك غيرها آنذاك. وكانت تلك الذئاب تنهش عدداً من الجيف المنتنة.

وفي صباح يوم من أيام الشتاء، إنطلق جوليان قبل طلوع الشمس، وقد جهز نفسه تجهيزاً كاملاً. فقد كان يحمل على

عاتقه قاذفة للسهام، ورزمة صغيرة من النبال وضعها في عدل سرج جواده الدانمركي الذي ينطلق بخطى متساوية فتحدث قوائمه وقعاً على الأرض منتظماً. بينما تبعه كلبا صيد قصيران إعوجت منهما القوائم.

ولقد كانت تلتصق على معطفه كتل صغيرة من الجليد المتساقط وتهب عليه ريح عاتية.

وفي بياض الغسق رأى جوليان أرانب تقفز قفزات متعددة عند ظاهر أوجـارها ، فانقض عليها الكلبان في الحال، وما هي إلا جولات خاطفة حتى قصماها قصماً.

وبعد قليل من الوقت دخل الى إحدى الغابات. وكان احد الديكة يعيش على ارض ينبت فيها الخلنج، قد خدره البرد، كان ذلك الديك نائماً على حافة احد الغصون داساً رأسه تحت جناحه، فقطع له جوليان قائمتيه بظهر سيفه وتابع طريقه غير آبه بالتقاطه.

وبعـد ساعـات ثلاث وصـل الى قمة جبـل بلغت من الارتفاع حداً تكاد تبدو السماء معه سوداء قاتمة. وأمامه صخرة داكنة أيضاً، طويلة الجانب، تنحدر مشرفة على هوة، وعلى طرفها تيسان بريان ينظران الى الهوة. وحيث إنه لم تكن معه سهام بسبب وجود جواده وراءه، فإنه قد رسم في ذهنه أن

يهبط الى الصخرة. ووصل أخيراً الى أحد هـذين التيسين، وصل إليه وهو حافي القدمين ، مقوس الظهر قليلاً، فأغمد خنجره في ضلوعه، فخر صريعاً. وأما الثاني فقد انتابه ذعر شديد، وما كان منه إلا أن قفز قفزة في الهواء، فمد جوليان جسمه ليضرب عنقه، فانزلقت قدمه اليمنى ووقع على جثة التيس الصريع، وجهه فوق الهوة، وذراعاه مفترقتان بعضهما عن بعض.

وعندما نزل جوليان الى السهل مرة أخرى، سلك طريقاً نهرياً زرعت أشجار الصفصاف على ضفتي النهر الذي يمر فيه.

وكانت طيور الكركي تحلق على ارتفاع منخفض، فتمر فوق رأسه حيناً فحيناً، فانهال عليها جوليان ضرباً بسوطه فقتلها ولم يغادر منها واحدة.

ولقد أذاب الهواء، الذي أصبح أكثر حرارة من ذي قبل، أذاب الطبقة الرقيقة من الجليد المتساقط.

وتصاعد الضباب في الفضاء، بينما أسفرت الشمس وتنفس الصبح.

ورأى جوليان بحيرة جمد ماؤها تلمع من بعيد، رآها تكتسي لوناً كلون الرصاص، وفي وسطها حيوان لا يعرفه، ألا وهو القندس ذو الخطم الاسود. وبرغم المسافة الفاصلة بينه

وبين ذلك الحيوان، فإن سهماً من سهامه قد أصابه فصرعه. وحزن جوليان لعدم تمكنه من الحصول على جلده. ثم تقدم سالكاً جادة ذات اشجار ضخمة ترسم ورؤوسها شكلاً يشبه قوس النصر على مدخل غابة من الغابات. وقفز حيوان من فصيلة الأيائل خارج احد الأدغال. وظهر أيل أسمر في احد المفارق، وخرج من احد الثقوب غرير، بينما ظهر احد الطواويس فارشاً على العشب ذنبه.

ولما قتل جوليان سائر تلك الحيوانات، تقدمت أخرى من فصيلة الأيائل، ودلف عدد آخر من الطواويس والشحارير وبنات عرس، وعدد من الثعالب والمناجذ والأواسي، بالإضافة الى عدد يكاد لا يحصى من الحيوانات التي كانت تتكاثر مع كل خطوة من الخطوات.

كانت تدور حول جوليان مرتجفة مرتعدة، وتحدجه بنظرات ملؤها اللطف والضراعة. ولكن جوليان لم يكل أو يمل من قتلها مع غيرها من الحيوانات التي برزت له في صيده، تارة بتوتير قوسه، وأخرى بتجريد سيفه، وثالثة طعناً بخنجره، وهو في ذلك لا يلوي على شيء، ولا يفكر في أمر سواه، كبيراً كان أو صغيراً.

لقد كان يصطاد في بلد ما منذ وقت غير محدد. وكان مجرد

وجوده الشخصي يجعل بقية الأمور تجـري رخاء حيث أراد وكأنه يعيش حلماً من الأحلام. ولكن مشهداً خارقاً للعـادة استوقفه وأثار دهشته، ألا وهو مشهد مجموعة من الأيائل تملأ وادياً صغيراً بأعدادها الهائلة. وكان ذلك الوادي يشبه أحد الملاعب الشعبية المغلقة. لقد ألصقت تلك الأيائل أجسامها بعضها الى بعض طلباً للدفـء بينما تصاعدت أنفاسها الدافئة في الجو وكأنها دخان.

وإن وقوع مثل تلك المجزرة على يد جوليان خلال بضع دقائق، قد أفعم نفسه بهجة لا تضاهيها بهجة في العالمين.

ثم ترجل جوليان عن جواده، ورفع كميه ثم بدأ بإطلاق السهام على الأيائل. وعنـد سماع أول سهم يشق الفضـاء متجهاً نحو الوادي أدارت الأيائل رؤوسها جميعاً، وحدثت فجوات في تجمعاتها، فأصبح شملها شتيتاً، وارتفعت أصواتها متذمرة شاكية. وهاج القطيع وماج بحركة عظيمة بثت الفوضى والبلبلة في صفوفه المذعورة.

ولقد كانت حافة الوادي مرتفعة ارتفاعاً شاهقاً لا يسمح بتجاوزها من قبل ذلك القطيع، فكانت الأيائل تقفز وتقفز داخل الوادي محاولة أن تجد لها منه مخرجاً ومناصاً.

وكان جوليان يصوب سهامه ثم يطلقها فتسقط على القطيع مثل زخات المطر في اليوم العاصف. وأصبحت الأيائل في غاية

الهياج، فتقوم بقفزات عالية ويصعد بعضها على ظهور الأخرى. وكانت أجسام حيوانات القطيع تشكل مع قرونها المتشابكة كثيباً من الرمال عظيماً لا يلبث أن ينهار لدى انتقالها من مكان الى مكان.

ونفقت الأيائل أخيراً، فألقيت جثثها على الرمال، بينما بلل اللعاب خطم كل واحد منها. وبرزت أحشاؤها ثم همدت حركة بطونها قليلاً قليلاً، الى أن استحالت جثثاً هامدة.

وأوشك الليل على الهبوط. فوراء الغابة وعبر الفراغات القائمة بين أغصان الأشجار، كانت السماء تبدو حمراء كغطاء من الدم.

وأسند جوليان ظهره الى جذع شجرة فأخذ يتأمل بعينين اتسعت حدقتاهما دهشة وذهولاً، أخذ يتأمل فداحة المجزرة وحجمها غير مدرك كيفية تمكنه من إحداثها.

وفي الجهة الأخرى من الوادي، في حاشية الغابة، أبصر أيلاً وظبية مع شادنها. كان ذلك الأيل أسود، عظيم الجثة الى حد كبير، في رأسه ستة عشر قرناً، وله لحية بيضاء. وكانت الظبية شقراء مثل أوراق الخريف الميتة، تخضم العشب، بينما شادنها ذو الجلد المرقط يرضع ثديها من غير أن يكلفها مؤونة التوقف عن سيرها.

وانطلقت سهام جوليان مرة اخرى، فقتل الشادن على

الفور، فنظرت أمه الى السماء تشكو رزيتها، متضرعة بصوت عميق يقطع نياط القلوب، واستشاط جوليان غضباً فصرعها بضربة أصابت صدرها إصابة مباشرة ورأى الأيل الكبير ذلك المشهد فقفز في مكانه وكأنه دهش من هول ما رأى، فوجه اليه جوليان آخر سهم في كنانته فأصابه في جبهته، وبقي السهم فيها مغروزاً.

لم يظهر على الأيل العظيم أنه أحس به، فلقد كان لا يزال يسير قدماً فوق جثث الأيائل الصريعة، وكاد أن ينقض على جوليان فيبقر بطنه، بينما هذا يتراجع في ذعر لا يمكن أن يقع تحت وصف الواصفين.

وتوقف الحيوان العجيب وردد كلمة واحدة بعينين متوهجتين متقدتين، وكأنه قاضٍ من القضاة أو بطرك من البطاركة، رددها ثلاثاً بينما كان الناقوس يقرع في الكنيسة :.

ـ « ملعون! ملعون! ملعون! إنك ستقتل في يوم من الأيام أباك وأمك يا صاحب القلب الغليظ الفظ! ».

ثم ثنى ركبتيه وأطبق جفنيه بهدوء ليسلم نفسه الى قدره المحتوم.

فاعترى جوليان الذهول والتعب المفاجىء ، وشعر باشمئزاز وتقزز بالإضافة الى شعوره بأن حزناً ملأ قلبه وملك عليه أقطار نفسه.

لقد بكى كثيراً واضعاً رأسه بين كلتا يديه. وكان قد ضاع جواده وغادرته كلابه. وبدا له أن الوحدة التي تلف كيانه تهدده بأخطار لا يعرف لها وصفاً ولا تحديداً. فدفعه ذعره الى أن يجري عبر البرية، فاختار جزافاً ممراً ضيقاً ثم ألفى نفسه لدى باب القصر في الحال.

وعند هبوط الليل لم ينم. وكان لا يزال يعاوده مشهد الأيل الأسود العظيم وهو يجلس تحت المصباح المتأرجح في سماء غرفته. فلقد أصبحت نبوءة الأيل هاجسه الوحيد. وأخذ جوليان يقاوم هذا الهاجس ويحاول أن يتخلص منه قائلاً: «كلا! كلا! لا يمكن أن أقتلهما ثم فكر وقدر وقال في نفسه: «وإذا اتفق لي أن قتلتهما؟».

ولكم كان يخشى أن يسول له الشيطان قتلهما ويزينه له. ودعت له امه وهي تصلي مدة ثلاثة أشهر عند رأس سريره، والقلق يملأ نفسها.

أما والده فقد كان يذرع الممرات مصعداً آهاته الحرى. واستدعى له أعظم الأطباء شهرة، فوصفوا له مقادير من الدواء وقالوا إن مرض جوليان مرده ريح نحسة أو نزوة عشق ألمت به.

ولكن الشاب جوليان كان يكتفي من الإجابة على ما طرح عليه من أسئلة بهز رأسه.

ولما استرد عافيته وعاد اليه نشاطه، أخذوا يطوفون به في باحة القصر مستنداً الى ذراعي كل من الناسك العجوز والكاهن.

وعندما تماثل جوليان الى الشفاء تماماً أصر على ألا يعود الى صيدٍ أبداً.

وأراد والده أن يدخل السرور الى قلبه، فأهدى اليه سيفاً عربياً كبيراً يشبه في طوله سارية من السواري، أهداه اليه بالإضافة الى مأطورة للسلاح. ولكي يصل الى قبضة ذلك السيف، كان لزاماً عليه أن يتسلق سلماً. وارتقى جوليان سلماً فبلغ الى ذلك السيف. وعندما حاول أن يمسكه بيده أفلت من بين أصابعه، ولامس الكاهن عن كثب ملامسة جعلت ثوبه الفضفاض ينشق، فاعتقد جوليان أنه قتل أباه فأغمي عليه. ومنذ ذلك الحين أخذ يوجس من السلاح خيفة الى درجة انه يمتقع لمجرد رؤيته لسلاح خارج غمده. وذلك ما سبب لعائلته الحزن والأسى.

وفي نهاية الأمر أمره الناسك العجوز باسم الله والشرف، وباسم الآباء والأجداد، أن يستأنف تمريناته التي هي من شأن النبلاء.

وكان معلمو الفروسية يلهون كل يوم باستعمال إحدى الحراب. وقد برع فيها جوليان بسرعة مذهلة. فقد كان يدخل

حربته في عنق الزجاجة، ويحطم أسنان دوارة الهواء، ويدق المسامير في الأبواب من مسافة مئة خطوة.

وفي إحدى أمسيات الصيف، وفي اللحظة التي يغشى فيها الضباب الاشياء فيحجبها عن الأنظار، رأى مكانه تحت العريش جناحي طائر أبيض يطير على مستوى ارتفاع العريش، فلم يشك في أنه طائر البجع، فرماه برمحه. وانطلقت صيحات تقطع نياط القلب.

لقد كانت الضحية والدة جوليان التي بقيت قبعتها ذات الحواشي الطويلة مسمرة على الجدار، ففر جوليان من القصر ولم يعد يظهر أمام الناس.



زجاجية من وحي أسطورة القديس جوليان (كاتدرائية روان)

٢

إنضم جوليان الى عصبة من المغامرين تصادف مرورهم من أمامه.

لقد جاع وعطش وأصابته ضروب الحميات، وابتلي بالحشرات على أنواعها. وأصبح العراك الصاخب والمشاجرات العنيفة من الأشياء المألوفة بالنسبة اليه. كما اعتاد منظر المحتضرين.

لقد لوحت الريح بشرته، وعرك لبوس الحديد بالقسوة أعضاءه. ولقد حصل بسهولة على مرتبة قائد لمجموعة من صحابه لكونه شديد البأس، شجاعاً، غير متطرف في آرائه ومواقفه لأنه حذر يقظ، وفطين ذكي.

كان يثير جنوده بحركة بارعة من سيفه، ويتسلق جدران الحصون بواسطة حبل فيه عدد من العقد، يتسلقها ليلاً، بينما تكاد العواصف أن توقعه أرضاً، والنار تلتصق بدرعه، والصمغ المغلي وذوب الرصاص ينهمران مطراً مدراراً عبر مرامي السهام في الحصون.

فلكم تحطم ترسه لدى اصطدام أحد الحجارة به! ولكم انهارت تحت قدميه جسور غصت بالجموع الغفيرة من البشر.

قضى على أربعة عشر فارساً بضربة واحدة من سيفه، وألقى بقفاز التحدي في وجه سائر الذين تقدموا منه للمبارزة. ولقد حسبوه في عداد الأموات أكثر من عشرين مرة.

كان يفلت في كل مرة من براثن الموت بفضل الله لأنه كان يضع رجال الكنيسة تحت ظل حمايته ورعايته، كما كان يرعى اليتامى والأرامل، لا سيما من تقدمت به السن.

فما إن يرى أمامه شخصاً من هؤلاء الناس يسير على قدميه حتى يصرخ به ليتعرف على صورة وجهه خوفاً من أن يقتله خطأ.

لقد انضوى تحت رايته وسار تحت لوائه الفارون من العبيد، والثائرون من الفلاحين، ومن لا يعرف له أباً أو أماً من المفلسين، والرجال الأشداء البواسل من كل جنس ولون، فكان له من هؤلاء جيش عرمرم ما لبث أن ذاع صيته حتى أصبح الكثير من الناس يودون الانخراط فيه.

فلقد أنجد كلاً من ولي عهد فرنسا، وملك إنكلترا، ورهبان هيكل الرب في بيت المقدس، ونائب ملك البارثيين، ونجاشي الحبشة، وإمبراطور كليكوت. قاتل قوماً اسكندينافيين غطيت أجسامهم بقشور السمك، وآخرين من الزنوج المزودين بالدروع ذات الأشكال الدائرية المصنوعة من جلود أفراس النهر، والذين يمتطون حميراً حمراء. كما قاتل هنوداً ذوي بشرة

صفراء، يشهرون سيوفاً عريضة فوق رؤوسهم التي تعلوها التيجان، سيوفاً تفوق المرايا جلاء وصفاء.

لقد قهر سكان الكهوف وآكلي لحوم البشر من المتوحشين، وعبر مناطق بالغة الجفاف، وصلت حرارة الشمس فيها الى حد جعل شعور الناس تشتعل من تلقائها وكأنها مشاعل مضيئة. كما عبر مناطق أخرى غيرها بلغت البرودة فيها درجة جعلت سواعد الناس تنفصل عن أجسامهم فتقع أرضاً. كذلك، فقد عبر بلاداً فيها من الضباب ما يجعل المرء يسير كأنه يعيش في عالم من الأشباح.

وقد استشارته جمهوريات في ساعة العسرة ليخرجها من محنتها. ولدى مقابلته لسفراء البلدان كان يحصل على شروط لا يحلم أحدا بالحصول عليها.

وإذا تصرف ملك من الملوك تصرفاً سيئاً، يأتي اليه جوليان في الحال ليقرعه ويؤنبه.

ولقد حرر شعوباً برمتها، وأطلق ملكات سجينات في البروج. وهو الذي قتل ثعبان ميلان وتنين أوبربيرباخ[1].

---

(١) هذا الثعبان الخارق العجيب، وذلك التنين كان لهما منزلة في الأساطير التي ترقى الى القرون الوسطى، والأساطير الألمانية، كذلك كان لهما إعتبارهما في الخيال الابداعي.

إن إمبراطور أوكسيتانيا كان قد تـزوج سفاحـاً بأخت خليفة قرطبة عندما انتصر على المسلمين الأسبان، واحتفظ بفتاة قرطبية كان قد رباها تربية مسيحية. ولكن الخليفة جاء ليزور الامبراطور متظاهراً بأنه يريد أن يتحول عن دينه الى المسيحية، جاء ومعه مجموعة كبيرة من الحرس فذبح حامية الامبراطور عن بكرة أبيها وألقى بذلك الامبراطور في أحد الدهاليز حيث كان يعامله بغلظة لينتزع منه كنوزه وما ملكت يداه من أموال. فهرع جوليان اليه ليساعده في محنته ويخرجه من ورطته، فدمر جيش الكفرة، وحاصر المدينة فقتل الخليفة وقطع رأسه ثم ألقى به من على الأسوار مثلما يلقي بكرة من الكرات.

وبعد ذلك أخرج الإمبراطور من سجنه ورفعه على عرشه من جديد بحضور جميع أفراد حاشيته.

وقدم الامبراطور لجوليان كثيراً من المال في سلال خاصة ثمناً لهذه الخدمة التي اسداها اليه. ولكن جوليان لم يرد ان يأخذها، فقدم له الامبراطور ثلاثة أرباع ثروته معتقـدا أنه يبغي المزيد من ماله وعطائه، فما كان من جوليان إلا أن كرر رفضه، فعرض عليه أن يشاطره مملكته، فشكر له جـوليان ذلـك. عندئـذ راح الإمبراطـور يبكي من الغيظ غـير عـالم بالطريقة التي يظهر بها شكره وامتنانه لمن أنقذه وأعـاده الى

ملكه. ولطم جبهته ثم أسر الى أحد ندمائه بكلمة. وارتفعت الستائر فظهرت فتاة في ميعة الصبا.

كانت عيناها الواسعتان السوداوان تلمعان وكأنهما مصباحان في الغاية من اللطف والجمال، بينما انفرجت شفتاها عن ابتسامة هي السحر والفتنة عينهما. كانت حلقات شعرها مقرونة الى الحجارة الكريمة التي تزين معطفها المنفرج شيئاً قليلاً. ويمكن المرء أن يتنبأ بصباها من خلال ثوبها الرقيق الشفاف الذي كانت ترتديه.

لقد كانت عظيمة الظرف واللطف، ممتلئة الجسم، ولها خصر نحيل.

إفتتن جوليان بجمالها فأحبها حباً عظيماً، خصوصاً وأنه عاش حتى ذلك الوقت حياة عفة.

وتزوج جوليان ابنة الامبراطور هذه التي ورثت عن امها أحد القصور.

وعندما انتهت مراسم الزفاف تفرق شمل المحتفلين إثر لياقات ومجاملات لاحد لها.

كان قصر العروس مبنياً على الطراز العربي من الرخام الأبيض، ويقع على أنف جبل داخل في البحر، وفي إحدى الغابات المليئة بأشجار البرتقال.

وكانت الشرفات المغطاة بالأزهار تنحدر الى شاطىء أحد

الخلجان حيث تسمع قرقعة الأصداف الوردية اللون تحت الأقدام.

وخلف القصر تمتد غابة تشبه المروحة في شكلها. وكانت السماء دائمة الزرقة، والأشجار تتمايل ذات اليمين وذات الشمال تحت تأثير نسيم البحر والريح الآتية من الجبال، هذه الريح وذلك النسيم كانا يسدان الأفق برمته.

و إنك لتجد غرف القصر ينيرها ساعة الأصيل ما غشي جدرانها من الوشي والزينة. كما تجد أعمدة صغيرة دقيقة كالقصب تقوم دعامات لعقود القباب، تزينها نتوءات تشبه الرواسب الكلسية المتحجرة الهابطة من سقوف المغاور.

كذلك تجد في غرف القصر نوافير ماء، وأنماطاً من الفسيفساء في باحات القصر ، وقواطع مزركشة بالكشاكش، بالإضافة الى ألف لطيفة ولطيفة من لطائف الفن المعماري ودقائقه. وفضلاً عن ذلك كله، فإن صمتاً كاملاً كان يخيم على كل زاوية من زوايا القصر، حتى إنك لتسمع حفيف الشال على عاتق إحدى الصبايا، أو تسمع صدى نفس من الأنفاس التي تتردد في صدرها.

وكف جوليان عن الحرب، فكان يرتاح بين شعب هادىء.

و في كل يوم كان يمر من أمامه حشد من البشر مؤدين له

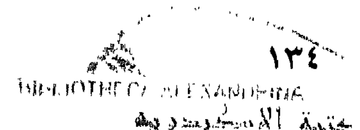
فروض الطاعة والولاء بالركـوع وتقبيل يـديه عـلى الطريقـة المشرقية.

لقد جلس بلباسه الأرجواني مستنداً بمرفقيه الى كوة إحدى النوافذ متذكراً الأيام الخالية التي أمضاها في الصيد.

وكان يود أن يعدو خلف الغزلان والنعامات، ويختبىء في أشجار الخيزران متربصاً بالفهود ليوقع بها، وأن يقطع غابات تمتلىء بحيوانات من مثل وحيد القرن، كما كان يتمنى أن يصل الى قمم أكثر الجبال وعورة وامتناعاً على التسلق، كان يتمنى ذلك كيما يحسن التصويب الى العقبان بطريقة فضلى، ويقاتل الدببة البيض في البحار المتجمدة.

وكان جوليان يبصر نفسه احيانا في المنام وكأنه آدم ابو البشرية وسط الجنة وبين سائر الحيوانات. كما يرى في تلك الاحلام انه يمد ذراعه فيقضي على تلك الحيوانات، أو يستعرضها مثنى مثنى متقدمة امام عينيه حسب حجم كل منها، بدءاً من الفيلة والأسود، وانتهاء بحيوانات الفاقم والبط؛ يستعرضها بهذه الطريقة مثلما استعرضها نوح عندما أدخلها سفينته.

فلقد كان جوليان يصوب نحوها رماحه التي لا تخطىء بينما هو مختبىء يترصدها في ظل إحدى المغارات. ثم يأتي



غيرها. وهكذا الى ما لا نهاية له من تلك الأصناف من الحيوانات.

ويستيقظ جوليان من ذلك الحلم مرسلاً نظراته الشرسة القاسية الى من حوله وما حوله.

ودعاه أمراء من أصحابه ليصطاد معهم، فرفض ظناً منه، انه بهذا النوع من التوبة يحول من وجهة تعاسته وسوء طالعه، ذلك بأنه كان يبدو له أن مصير والديه منوط بالمجزرة التي ارتكبها بحق الحيوانات أثناء صيده.

ولكن عدم رؤيته لوالديه كان يثير مكامن الألم في نفسه. وأصبحت رغبته في التكفير عن خطاياه تكاد لا تستقر في ضلوعه من فرط ما ألحت عليه وضجت في صدره.

ولقد استدعت له زوجه المشعوذين والراقصات كي تروح عن نفسه وتخفف عنه ما يكابده من عذاب.

كما كانت تتنزه وإياه في البرية على محمل مفتوح. وفي أحيان أخرى كانا يتجولان وهما مستلقيان على حافة زورق من الزوراق، ويتفرجان على الأسماك التي تنتقل من مكان الى مكان في مياه كالسماء صفاء ونقاء.

وكثيراً ما كانت زوجه تلقي على وجهه بالأزهار وهي جاثية على قدميه، وتعزف له على آلة موسيقية ذات أوتار ثلاثة، ثم تضع كلتا يديها المضمومتين على منكبه وتقول له بلهجة حيية:

- « ماذا دهاك يا سيدي العزيز؟ »، فلا يجيبها عن سؤالها، أو ينفجر باكياً منتحباً.

واعترف اخيراً في أحد الأيام بما يفكر فيه من أفكار فظيعة مرعبة.

ولقد حاربت زوجه هذه الأفكار بأن فكرت بصورة منطقية على النحو الآتي:

من المحتمل أن يكون والداه قد توفيا؛ فإذا حدث له أن رآهما في يوم من الأيام فكيف يحصل له، وفي أي هدف يتفق له أن يصل الى ما يصل اليه من التفكير، على هذا النحو الفظيع؟

إذاً فإن خوفه لا مبرر له، ويجب أن يعود الى ممارسة الصيد. ويبتسم جوليان وهو يستمع اليها، ولكنه لم يعقد العزم على أن يلبي لها رغبتها.

وفي إحدى أمسيات شهر آب (أغسطس) بينما هو وزوجه في غرفتهما هي نائمة منذ وقت قصير، وهو في صلاة وركوع، سمع جوليان ثعلباً يعوي، كما سمع وقع أقدام خفيفاً تحت النافذة. ولمح في الظلام أشباح حيوانات تراءت له، فأنزل كنانته من مكانها معداً نفسه للصيد. وبدت على زوجه الدهشة والذهول من هذه المفاجأة، فقال لها زوجها:

ـ «ما ذلك إلا طاعة لك وتنفيذاً لنصائحك، وسأعود عند شروق الشمس».

بيد أن زوج جوليان أوجست خيفة في نفسها من مغامرة مشؤومة ينوي زوجها القيام بها، فطمأنها هذا وعجب من عدم انسجام مزاجها. وبعد فترة وجيزة جاء أحد الخدم ليعلن أن شخصين مجهولين يطالبان بمقابلة ربة القصر ما دام رب القصر غائباً

ولم يلبث أن دخل الى الغرفة رجل وإمرأة عجوزان، وقد تقوس منهما الظهر، وبدا كل منهما أشعث أغبر، يرتديان ثياباً خشنة، ويتوكآن على عصوين. ولم تخن الشجاعة هذين الشيخين في أن يعلنا أنهما يحملان الى جوليان أخباراً من والديه. فانحنت زوجه لتسمع الأخبار. لكن العجوزين نظر بعضهما الى الآخر نظرة تواطؤ واتفاق وسألاها بصوت واحد إذا كان جوليان لا يزال يضمر الحب لوالديه ويتحدث عنهما في بعض الأحيان. فأجابت زوجه:

ـ «أجل، »، فصاح العجوزان معاً بهذه الكلمات:

ـ «حسناً! نحن والداه، »، ثم جلسا لفرط ما اعتراهما من التعب والإعياء.

ولم يكن هنالك شيء يؤكد للصبية أن زوجها هو ابن لهذين العجوزين ولكنهما أعطيا الدليل على ذلك محددين

علامات معينة توجد على بشرة جوليان. فنهضت الزوج من مخدعها ودعت خادمتها فأعدت للعجوزين الطعام وبرغم كونهما شديدي الجوع، لم يستطيعا أن يتناولا من الطعام إلا لقيمات قليلة. وكانت تلاحظ وهي بعيدة عنهما اهتزاز أيديهما الناحلة وهما يتناولان قدحي الشراب.

وطرح الشيخان ألف سؤال حول جوليان، فكانت زوجه تجيبهما عنها كلها، ولكن كان همها أن تقصي عن ذهنها الخاطر المشؤوم الذي كان يخطر على بالها في شأنهما.

وأخبراها انهما، إذ وجدا أن جوليان لم يعد الى قصرهما بعدما انتظراه طويلاً، إنصرفا بدورهما من القصر بحثاً عنه، تتبعا إشارات غامضة تدل على مكان وجوده، تتبعاها سنين طويلة دون أن يفقدا الأمل في العثور عليه. وكان عليهما أن ينفقا كثيراً من المال في مصاريف متعددة شتى، منها مثلاً رسوم المرور عبر الأنهار، ونفقات الإقامة في الفنادق، وحقوق الأمراء، وما يتطلبه اللصوص منها. وبلغت هذه الأموال المدفوعة حداً جعل ما لديهما مما خصص لهما منه ينفد، وذلك ما حداهما على التسول. وما همهما من ذلك المصير ما داما سيعانقان بعد قليل من الوقت ابنهما جوليان؟

وكانا يثنيان على سعادة ابنهما جوليان لكونه قد حظي

بزوجة في مثل ذلك القدر من اللطف، ولم يتعبا من إلقاء نظراتهما المتأملة عليها وتقبيلها.

وأثار أثاث القصر ورياشه دهشتهما الى حد كبير. وعندما تفحص العجوز بنظراته المتأملة جدرانه، سأل عن سبب وجود شعار نسب إمبراطور أوكيستانيا عليها، فأجابته زوج جوليان قائلة:

ـ «إنه أبي!».

فاختلج العجوز وارتعد مستذكراً بنوة ذلك المتشرد الآفاق.

وفكرت العجوز في كلام الناسك. فلا ريب أن مجد ابنها وعظمته ليسا سوى فجر النور الأبدي.

وبقي العجوزان مشدوهين مذهولين تحت نور مشكاة فيها مصباح يضيء بنوره الطاولة التي كانا يجلسان اليها.

ولا بد أنهما كانا رائعي الجمال في شبابهما، فلم تكن الأم قد فقدت بعد شيئاً من شعرها الذي بقيت منه ذؤابات دقيقة تشبه كتلاً من الثلج تتدلى الى أسفل خديها. وكان الأب يشبه بقده الفارع الطول ولحيته الكبيرة أحد تماثيل الكنيسة.

وحملت زوج جوليان العجوزين على ألا ينتظرا جوليان، وأضجعتهما بنفسها في فراشه وأغلقت زجاج النافذة، ونام

العجـوزان. وأوشك أن يـطلع النهار، بينـما بـدأت صغـار العصافير تزقزق خلف زجاج الغرفة.

وكان جوليان قد إجتاز الحظيرة بينما هو يسير في الغابة بخطى تتفجر نشاطاً ورشاقة مستمتعاً بلدانة العشب ولطف الهواء.

كانت الأشجار تمد ظلالها على الأعشاب، والقمر يرسم أحياناً بقعاً بيضاء في منفرجات الغابة، فيتردد جوليان في السير قدماً ظناً منه أنه رأى مستنقعاً، أو أن صفحة مياه البحيرات التي لا موج فيها ولا رياح تحركها يختلط لونها بلون العشب. وساد الصمت الرهيب كل مكان، ولم يكتشف جوليان أياً من الحيوانات التي كـانت تهيم على وجهها حول قصره لدقائق معدودات.

وأرخى الظلام سدوله الكثيفة وألقى بظله الرهيب على الغابة.

وهبت رياح ساخنة محملة بالأريج الذي يبعث في النفس الـراحة، ويبث في الأعصـاب الهدوء والاسـترخاء. وتـوغل جوليان عبر ركام من الأوراق الذابلة الميتة، وأسند ظهره الى شجرة بلوط ليتنفس الصعداء ويحظى بقسط من الراحة.

وفجأة، قفزت من خلفه كتلة أشد سواداً من ذي قبل، وكانت عبارة عن خنزير بري. ولم يتح الوقت لجوليان حتى

يأخذ قوسه فيرمي هذا الخنزير بسهامه، فحزن لذلك حزناً عظيماً، وكأنما أصابته كارثة.

ثم شاهد جوليان خارج الغابة ذئباً يذرع سياجاً جيئة وذهاباً، فصوب نحوه سهماً من سهامه فتوقف الذئب وأدار رأسه ليراه ثم استأنف عدوه. كان يقفز محتفظاً بالمسافة عينها بينه وبين جوليان، وأخذ يتوقف من حين الى حين. وحالما صوب اليه سهمه مرة اخرى أخذ الذئب يجد في الهرب من جديد.

وبهذه الطريقة اجتاز جوليان سهلاً لا تدرك له نهاية. وقطع تلالاً رملية، ثم ألفى نفسه في نهاية المطاف فوق هضبة تشرف على مساحات شاسعة من البلاد.

وكانت الحجارة المسطحة متناثرة بين أقبية صغيرة صارت يباباً. بينما كان الناس هنا يتعثرون بعظام الموتى، والصلبان التي نخرها السوس في حالة يرثى لها.

ولكن أشباحاً حركت في الظلام المريب قبوراً، فخرجت منها ضباع فزعة مشدوهة، لاهثة، فاقتربت من جوليان وشمته وهي تتثاءب تثاؤباً كشف عن لثاتها.

ولما نزع جوليان سيفه من غمده فرت جميع الضباع دفعة واحدة في كل اتجاه، واختفت بعيداً مخلفة وراءها سحباً من النقع.

وبعد ساعة من الزمان التقى ثوراً هائجاً في أحد الأودية، قد انتصبت قرونه الى الأمام، وهو ينكت الرمال بإحدى قوائمه، فسدد جوليان سهماً من سهامه صوب اللحم المتدلي من تحت فكه، فانفجر الثور وكأنه من البرونز، وأطبق جوليان عينيه منتظراً أن ينفق، لكنه عندما عاد وفتحهما كان الثور قد توارى عن الأنظار فأصيب جوليان بحالة من الانهيار النفسي نتيجة الخزي الذي احس به إثر هذه الحادثة، فإن قوة علوية قاهرة هي التي دمرت قوته. ولكي يعود الى قصره دخل مرة اخرى الى الغابة التي تشابكت فيها النباتات المتسلقة، فأخذ جوليان يقطعها بسيفه.

وفي هذه الأثناء مر نمس فجأة من بين ساقيه، وقفز أحد الفهود من فوق منكبيه، بينما التفت حية حول شجـرة من أشجار الدردار أمامه. وكان بين أوراق تلك الشجرة غراب هائل ينظر الى جوليان. وظهر هنا وهناك عدد من الشرارات الضخمة بين الأغصان، وكأن السماء أسقطت كل نجومها عـلى الغابة مطراً منهمراً. ولم يكن ذلك المطر سوى عيون حيوانات كالهررة البرية والسناجب والبوم والببغاوات والقرود. فرماها جوليان بسهامه، فاستقرت تلك السهام على الأوراق بريشها وكأنها فراشات بيضاء. ثم قذفها بالحجارة من غير أن تصيب هدفاً. فلعن جوليان نفسه وتمنى لو يقاتل وينازل. ودوى صوته

لاعناً متسخطاً حتى كاد أن يخنقه الغضب. وتقدمت الحيوانات التي طاردها جوليان في صيده، وضربت حوله طوقاً ضيقاً محكماً، فبعضها كان يجلس على ردفه والبعض الآخر ينتصب واقفاً بكامل قامته. وبقي جوليان وسطها وقد شل الرعب حركته وعجز عن القيام بأدنى حركة. ولكن خطا خطوة واحدة بفضل جهد إرادي عظيم وعزيمة صادقة ثابتة. فنشرت الطيور الجاثمة على الأشجار أجنحتها، وتحركت الحيوانات التي تدب على الأرض من مكانها، ورافقته هذه وتلك الى حيث خطا أول خطاه.

كانت الضباع تسير أمامه، والذئب والخنزير البري خلفه؛ أما الثور فكان يسير عن يمينه هازا رأسه يمنة ويسرة؛ وأما الحية فكانت تتلوى زاحفة على الأعشاب؛ بينما يسير الفهد بخطى وادعة واسعة محنيا ظهره. كان يسير بأقصى درجة ممكنة من البطء حتى لا يثير غضب الحيوانات وسخطها.

وكان جوليان يرى الشياهم والثعالب والثعابين، وبنات آوى ، والدببة تخرج من قلب الأدغال العميقة. وأخذ يجري فعدت وراءه. وشرعت الحية تطلق فحيحها، والحيوانات المتنتة يسيل لعابها، بينما الخنزير البري يضرب كعبي جوليان ببراثنه، والذئب يفرك بطن راحتيه بوبر خطمه.

وقرصته إحدى القردة وهي تكشر عن أنيابها؛ أما النمس

فأخذ يتقلب على قدميه. ورفع له أحد الدببة قبعته عن رأسه بظهر إحدى قوائمه. وأوقع له الفهد باحتقار واستخفاف سهما من سهامه، وحمل ذلك السهم بخطمه. وجميع هذه الحيوانات كانت تظهر وتعبر بتصرفاته تلك عن الازدراء والسخرية من جوليان.

كان يبدو على هذه الحيوانات أنها تخطط للانتقام عندما كانت ترنو إلى جوليان بأطراف عيونها.

كان جوليان يمشي ويداه مبسوطتان، وجفناه مطبقان كالمكفوف، يمشي وقد أصم أذنيه طنين الحشرات المهومة، وضربته بأذنابها، وخنقته الأنفاس المتصاعدة من الحيوانات في الغابة. يسير بلا حول ولا قوة حتى لكي يصيح طالبا العفو والغفران.

وهز أمواج الأثير صياح أحد الديكة، فتجاوبت سائر الديكة في الغابة مع هذا الصياح، وتنفست في الغابة أنوار الصباح، فتعرف جوليان على قمة قصره وراء أشجار البرتقال. ثم رأى في ظاهر أحد الحقول، ومن مسافة ثلاث خطوات منه حجلانا حمرا تحوم فوق أكواخ ذات أسقفة من القش والقصب، فحل جوليان إزاره وألقاه عليها وكانه شبكة من شباك الصيد، وعندما كشف عن الحجلان إزاره لم يجد سوى حجل واحد متعفن لما مضى على لفظ أنفاسه من الزمان.

خيبة الأمل هذه أثارت سخطه أكثر من خيبات الأمل الأخرى التي عاناها. فعاوده عطشه إلى الدماء. كان يود لو يذبح بشرا عوضا عن الحيوانات التي قلت وعزت على سهامه ونصاله ؛ فاجتاز السطوح الثلاثة وخلع الباب بضربة واحدة من قبضة يده. لكنه عند أسفل السلم عاودته ذكرى زوجه فقرت عينه وارتاحت نفسه. فهي لا شك نائمة، وانه سيذهب بعد قليل كي يفاجئها بحضوره.

أدار المفتاح بهدوء في قفل الباب بعدما خلع نعليه ودخل إلى القصر. كانت الواح الزجاج المؤطرة بالرصاص تحول أنوار الفجر الضعيفة إلى ظلام دامس.

وعثرت قدماه بثياب ملقاة على أرض الغرفة، واصطدم على مسافة قصيرة من هناك بخزانة للصحون كانت لا تزال مثقلة بها، فقال في نفسه: « لربما تناولت زوجي طعامها. »، وتقدم نحو سريرها الغارق في ظلام الليل الحالك عند آخر الغرفة. وعندما وصل إلى حافته، وفي نيته أن يقبلها، إنحنى على وسادتها التي كان عليها رأسان أحدهما إلى جانب الآخر، وأحس بأن شفتيه تلامسان لحية رجل لا وجه امرأة، فتراجع ظنا منه أنه فقد صوابه. لكنه عاد إلى حيث كان قريبا من السرير وتلمس المكان بيديه فوجد شعرا طويلا على الوسادة. ولكي يقنع نفسه بأنه على خطأ، عادت يداه تتلمسان الوسادة

بهدوء وتؤدة، فشعر أنه يحس شعر لحية هذه المرة، وأن رجلا ينام إلى جانب زوجته! فانفجر سخطه وغضبه بشكل لا حدود له، فقفز عليهما طاعنا إياهما طعنات كثيرة بخنجره، ثم أخذ يضرب الأرض بقدميه مرغيا مزبدا، ومطلقا عواء يشبه عواء حيوان متوحش كاسر. ثم هدأت عاصفة غضبه، ولم يبد القتيلان اللذين صرعهما جوليان حراكا لأنهما تلقيا طعنات خنجره في قلبيهما. وكان جوليان يستمع إلى حشرجتهما بانتباه. وكانت كلما ضعفت حشرجة أحدهما تكمله أخرى من مكان بعيد. واقترب ذلك الصوت الشاكي رويدا رويدا، واصبح ضخماً غليظا. وعرف جوليان، وقد انتابه ذعر شديد، أن ذلك الصوت هو نزيب الأيل الأسود الهائل.

وبينما كان جوليان يستدير إلى الوراء ظن أنه رأى في إطار الباب شبح زوجته يحمل في إحدى يديه نبراسا. فلقد شدتها إلى هناك الجلبة التي رافقت الجريمة التي اقترفها جوليان. وبنظرة عامة شاملة فهمت كل شيء، وسقط النبراس من يدها حينما أرادت الفرار من هول ذلك المشهد الذي رأته، فالتقطه جوليان. كان والداه ممدين أمامه على ظهرهما، بينما في صدر كل منهما ثقب ناشىء عن طعنة من الطعنات التي سددها جوليان إليهما، وعلى وجهيهما الجلال والجمال، وكأنهما يحتفظان بسر من الأسرار الخالدة. وتلطخ جلدهما الأبيض برشاش من

الدم المنهمر إثر طعنات جوليان؛ وقد تجمعت بقع الدم في وسطه وعلى أغطية السرير، كما تجمعت على الأرض وعلى تمثال عاجي صغير معلق على مخدعهما يمثل صورة السيد المسيح.

واضاء الانعكاس الشمسي تلك البقع الحمراء من الدم ورسم اخرى اكبر عددا منها في طول القصر وعرضه.

مشى جوليان نحو القتيلين وهو يقول في نفسه إن ذلك غير ممكن، وإنه أخطأ وإنه توجد أحيانا مواطن شبه كثيرة لا يمكن تفسيرها. وأخيرا، إنحنى شيئا قليلا ليرى عن كثب العجوز القتيل فأبصر بين جفنيه غير المطبقين تماما، حدقة انطفأ نورها ولكنها تحرقه كالنار بلهيبها. ثم انتقل إلى الجهة الأخرى من السرير الذي سجي فيه جثمان الضحية الثانية التي كان شعر رأسها يغطي قسما من وجهها. فدس جوليان أنامله تحت ضفائرها ورفع بيده رأسها ثم نظر إليه ممسكا إياه بطرف ذراعه القاسي، بينما حمل باليد الأخرى مشعلا أضاء له الأشياء من حوله، وقطرات الدم الناضح من الفراش تتساقط على ارض الغرفة قطرة قطرة.

في اخر النهار، تقدم الى امرأته متحدثاً اليها بصوت يخالف طبيعة صوته، فأمرها اولاً بألا تجيبه على كلامه، وبألا تدنو منه ولا تنظر إليه، وبأن عليها أن تطيع أوامره كلها التي لا رجوع عنها.

ووفقاً للتعليمات الخطية التي وجهها فإن مراسم الجنازة والدفن ستتم في مصلى الغرفة المخصصة للموتى.

وترك لزوجه قصره وخدمه وكل أمواله، ولم يحتفظ حتى بثيابه أو نعليه التي ربما تركها على العتبة العليا لسلم القصر.

لقد أذعنت زوجه لارادة الله عندما تسببت بالظروف التي اتاحت لزوجها ارتكاب جريمته. وعليها الأن أن تصلي لراحة نفس هذا الزوج مادام بعد الأن سيصبح غير موجود.

ودفن الفقيدان في كنيسة دير تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن القصر. وسار في الموكب الجنائزي ناسك يلبس ثوبا لا كم له، مزود بغطاء للرأس لا يبرز منه سوى العينين. كان يسير بعيدا عن الآخرين دون أن يجرؤ أحد على التحدث اليه وبقي أثناء القداس منبطحا على بطنه وسط المدخل الفخم للكنيسة راسما بذراعيه اشارة الصليب، وواضعاً جبهته على التراب.

وبعد الدفن شوهد الناسك يسلك الطريق المؤدية إلى الجبال. ولقد التفت خلفه مرات ومرات ثم اختفى وتوارى عن الأنظار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣

إنصرف جوليان متسولاً ليحصل على قوت يومه، فكان يمد يده يسأل الفرسان على الطريق أن يمنوا عليه بصدقة. ويقترب من الحاصدين لأرضهم راكعاً جاثياً، أو يبقى مسمراً امام حواجز باحات القصور والبيوت، وكان الحزن مرتسماً على وجهه الى حد لم يعد معه أحد يمانع في أن يعطيه صدقة.

وكان يروي قصته للناس بروح يشيع فيه الذل والانكسار، فيفر الجميع من أمامه عند سماعهم إياها راسمين على وجوههم إشارة الصليب.

وحالما عرفه سكان القرى التي مر فيها أقفلوا الأبواب أمامه، وأطلقوا التهديدات في وجهه، ورجموه بالحجارة.

وكان أكثر الناس إحساناً اليه يضعون طاسة الاحسان على حافة النافذة ثم يغلقون هذه حتى لا يروه.

وأصبح جوليان يعتزل الناس لأنه لقي منهم ما لقيه من الصدود والاعراض. وصار يغتذي بالنباتات وجذورها، وبالأثمار غير الصالحة للأكل، وبالحيوانات المحارية التي يلتقطها عن رمال الشاطىء.

وكان مرات يبصر عند مفترق الطريق الساحلي خليطاً عجيباً من الأسقفة، وسهاماً خشبية، وجسوراً،وأبراجاً، وشوارع سوداء تتقاطع ويتصاعد منها نحوه دوي دائب لا يعرف الإنقطاع.

وإن حاجته الى الاختلاط بالناس والى معايشتهم، جعلته ينزل الى المدينة، ولكن وجوه الناس وأشكالها البهيمية القبيحة، وصخب المدينة والأحاديث التي تغرق في اللامبالاة، كل ذلك ملأ قلبه خوفاً ورعباً.

وفي أيام الأعياد، وعندما يملأ دوي الكاتدرائيات بالصلوات نفوس الناس منذ الفجر، كان جوليان ينظر الى هؤلاء وهم خارجون من بيوتهم، ويتفرج على الرقص في الساحات، ثم ينظر الى مناهل الجعة على مفترقات الطرق، ويرى المضارب المصنوعة من الدمقس منصوبة أمام منازل الأمراء. وعند حلول المساء يرى جوليان، عبر زجاجية الطبقات السفلى من البيوت، الموائد العائلية الممتدة طولاً وعرضاً، حيث يجلس الأجداد محتضنين أحفادهم.

وعندما يرى جوليان ذلك المشهد يبكي حتى يشعر بالاختناق. ويعود أدراجه الى البرية.

وأخذ يتأمل الامهار بشغف عظيم وهي تسرح في الحقول الخضراء المرعة. كما كان يراقب العصافير في أعشاشها، والحشرات على الأزهار، وكلها تطير مسرعة عندما يقترب جوليان

منها، وتعدو بعيداً عنه مختبئة وقد امتلأت ذعراً ورعباً.

وأخذ يبحث عن الأماكن المنعزلة بعيداً عن عالم الأحياء. ولكن الريح كانت تحمل اليه حشرجة مدنف يعالج سكرات الموت.

وكانت قطرات الندى المتساقطة على الأرض تذكره بقطرات اخرى غيرها أكثر منها وزناً، والشمس تصبغ الغيوم كل مساء بلون الدماء. وكل ليلة كان يتكرر حلمه الذي يقتل فيه ابويه.

فصنع لنفسه مسحاً مزوداً برؤوس حديدية، وصعد على ركبتيه الى الهضاب التي في كل منها كنيسة خاصة. ولكن الخاطر الذي لا يرحم والذي يراوده باستمرار كان يلف جمال بيوت القربان في كنائس تلك الهضاب، ويتعذب جوليان من خلال ما كان يمارسه من تعذيب لنفسه بفعل الندامة التي لم تغادره لحظة من اللحظات.

ولم يثر جوليان على الله الذي عاقبه بقتله والديه، ولم يتسخط لكنه أصيب باليأس من جراء ما فعل. ولقد بلغت كراهيته لنفسه درجة جعلته يجازف بها كيما يتخلص منها وينجو من العذاب الذي يلاقيه في حياته.

فلقد أنقذ أناساً مشلولين من أخطار الحريق، وخلص أطفالاً من براثن الموت بانتشاله إياهم من أسفل الدركات،

فتقذفه الهوة ولا يتردى فيها، وتوفره النيران المشتعلة فلا تأكله. ولم يسكن الوقت من آلامه، بل أصبحت لا تطاق. فعزم على أن يموت انتحاراً.

وبينما كان يقف يوماً على حافة أحد الينابيع، وعندما انحنى لكي يتفحص عمق المياه فيها، رأى في الجهة المقابلة رجلاً شيخاً كبيراً، شديد النحول، ذا لحية بيضاء، هيئته تثير الرثاء الى حد لم يتمالك معه نفسه من ذرف الدموع الحرى. وبكى الشيخ أيضاً، إلا أن جوليان لم يهتد الى معرفة صورة الوجه، بل أخذ يتذكر بشكل مشوش غامض وجهاً يشبه ذلك الذي رآه. وصاح ذلك الرجل فعرف جوليان انه أبوه. ولم يعد جوليان يفكر في الانتحار.

وهكذا راح جوليان يجول في بقاع الأرض حاملاً عبء ذكراه فوق كاهله. ووصل الى منطقة بالقرب من نهر كان اجتيازه يعد مجازفة من المجازفات الخطرة بسبب عنف أمواجه وتياراته. ولم يعد أحد يجرؤ على اجتيازه منذ زمن بعيد لأنه كانت على ضفتيه مساحة شاسعة من الحمأ والطين.

وفي ذلك النهر زورق قديم اختفت مؤخرته، فما بدت منه سوى مقدمته المنتصبة على القصب.

واكتشف جوليان أثناء تفحصه مجذافين، فخطر له أن يسخر وجوده ويكرس حياته لخدمة الآخرين.

بدأ بإقامة نوع من طريق أو ممر يسمح بالنزول الى ذلك الممر المائي وحطم أظفاره عند تحريكه الحجارة الضخمة على ضفتيه.

كان ينقلها مسنداً إياها الى بطنه فتنزلق قدماه بالأوحال وتتغرزان فيها. واوشك على الهلاك غير مرة، فكان قاب قوسين أو أدنى من الموت.

ثم رمم الزورق بقطع من حطام السفن المحطمة، وصنع لنفسه كوخاً حقيراً من الصلصال ومن جذوع الأشجار.

وأخذ الركاب يفدون الى ذلك الممر المائي الذي أصبح يعرفه الجميع.

وكانوا ينادون جوليان من الضفة الأخرى للنهر ملوحين له بالأعلام فيقفز جوليان الى زورقه سريعاً وقد أثقلته أحماله الكثيرة على اختلاف ألوانها وأنواعها. عدا حيوانات الركوب التي كانت ترفس بقوائمها بدافع من الخوف، فتزيد في العراقيل القائمة من جراء ما يقله ذلك الزورق على متنه من أحمال.

ولم يكن جوليان يطلب شيئاً في مقابل أتعابه. ولكن بعضهم كانوا يعطونه الطعام والمؤن الغذائية، يخرجونها من أكياسهم ذات العِدلين أو يعطونه أسمالاً بالية لم تعد لهم اليها حاجة ويشتمه أناس غلاظ، فيتلقى جوليان شتائمهم وسبابهم

بالهدوء ورحابة الصدر، فيرد أولئك بالسباب مرة اخرى، فيكتفي جوليان بمباركتهم.

وكان ما يمتلكه جوليان من أثاث في كوخه عبارة عن طاولة صغيرة ومرقاة، وسرير من الأوراق الصفراء الذابلة، وثلاثة كؤوس خزفية. أما نافذتاه فكانتا لا تخرجان عن كونهما ثقبين في جدار الكوخ.

ومن إحدى جهات ذلك الكوخ تمتد على مدى الرؤيا سهول لا زرع فيها ولا ضرع، تجد فيها هنا وهناك مستنقعات ذات لون كادر.

وأمامه النهر الكبير الذي تتدحرج أمواجه الضاربة الى الخضرة.

وفي فصل الربيع تفوح رائحة التراب الرطب عطنة متعفنة، وتثير الرياح المتقلبة الهبوب زوابع من النقع، فيدخل ويتخلل كل مكان في الكوخ ويغشى جميع الموجودات فيه، فيوحل الماء وتصر حبيبات التراب تحت أسنانه ولثته. ولم تلبث أن غطت المكان مجموعات كبيرة من البعوض كأنها سحائب تملأ الفضاء، وتسد الأفق، فتحجب نور الشمس. ولا يتوقف هسيس تلك المجموعات من الحشرات ولا لسعها ليلاً ولا نهاراً.

ثم طرأ صقيع قاسٍ أكسب الأشياء اللينة صلابة

فأصبحت كالحجارة، وأوحى الى الناس بالحاجة الجنونية الماسة الى تناول اللحوم.

وانقضت سنون طويلة لم ير جوليان خلالها أحداً من الناس. وكثيراً ما كان يطبق عينيه محاولاً أن يعود بالذاكرة الى شبابه. وتبدو له إحدى باحات القصر وقد وقف على مدخلها عدد من الأرانب البرية، ويرى الخدم في غرفة السلاح، كما يرى غلاماً يافعاً أشقر الشعر بين عجوز يلبس الفراء، وسيدة تزين رأسها بطنطورها الكبير.

وفي أسرع من لمح البصر انتقلت جثتا القتيلين الى حيث يقيم جوليان، فانبطح على سريره وأخذ يردد باكياً:

- « آه، أبي المسكين، أمي المسكينة، أمي المسكينة، ».

ويغط بعدها في نوم عميق حيث تتواصل رؤاه المحزنة المفجعة.

وفي إحدى الليالي كان نائماً، فظن أنه سمع أحد الناس يناديه، فأصغى الى مصدر الصوت فلم تميز أذناه سوى هدير الأمواج ودويها.

ولكن الصوت عاوده قائلاً:

- « يا جوليان! ».

كان النداء آتياً من الضفة الأخرى. وذلك ما بدا له خارقاً للعادة، نظراً لأن النهر واسع بعيد الضفتين. ونودي جوليان مرة

ونودي جوليان مرة ثالثة: « يا جوليان! ».

كانت نبرة ذلك الصوت الجهوري تشبه نبرة جرس كنيسة وخرج من الكوخ بعدما أشعل مصباحه. وهبت ليلاً عاصفة هوجاء، فتكاثفت حجب الظلام وكانت ظلمات بعضها فوق بعض. إلا أنها ما لبثت أن خفت وطأتها بفعل بياض الأمواج المتلاطمة الثائرة. وبعد دقيقة من الزمان سيطر عليه فيها التردد حلّ جوليان حبل زورقه، فأصبحت المياه هادئة في الحال، وانزلق الزورق فوقها فلامس الضفة الأخرى حيث كان احد الرجال يقف منتظراً، يلبس أسمالاً بالية، ووجهه يشبه قناعاً من الجص، أما عيناه فقد كانتا أشد من الجمر حمرة.

وعندما أدنى منه جوليان فانوسه تبين أن به برصاً شنيعاً، بيد انه تبدو عليه هيبة وجلال كهيبة الملوك وجلالهم.

وحالما دخل ذلك الرجل الى الزورق غارت به مياه النهر بصورة خارقة عجيبة. وتحطم الزورق بفعل وزنه الكبير، ثم رفعته هزة من جديد الى صفحة الماء، فأخذ جوليان يجذف. وكان ارتداد الأمواج عند كل تجذيفة يرفع الزورق من الأمام.

وتجري المياه في النهر هائجة ثائرة من على جانبي الزورق، وقد أصبح لونها أكثر سواداً من المداد الأسود، فتحفر الأخاديد، وتنصب الجبال. وقفز الزورق مستقراً عليها، ثم هوى من جديد وتردى في الدرك الأسفل من النهر، يدور حول

نفسه مرات ومرات، ويمور تحت عتو الرياح موراً. فانحنى جوليان ومد ذراعيه وقلب جسمه لاوياً خاصرته ومثبتاً قدميه كيما يتاح له أكبر قدر من القوة.

كان البرد يلسع يديه لسع السياط، والمطر يهطل فيبلل ظهره، بينما تكاد أن تخنقه الرياح بعنفها وتكتم انفاسه في صدره. فتوقف عن التجذيف، وعبثت الرياح بزورقه، فانحرف عن وجهته الأصلية. ولكنه عاد الى التجذيف لأنه أدرك أن الأمر متعلق بشيء له اعتباره وخطره، ومنوط بأمر لا يرد ولا يعصى.

كان صرير المجذافين في حركتهما حول محورهما يقطع ضوضاء العاصفة.

وكان الفانوس الصغير يضيء امام عينيه، وتحلق الطيور من حين الى حين فتحجب ذلك الفانوس عن رؤية العين.

ولكنه كان يرى دائماً حدقتي الأبرص الذي يقف خلفه مسمراً في مكانه وكأنه سارية في بناء.

واستمر ذلك وقتاً طويلاً طويلاً!

وعندما وصل جوليان تصحبه الطيور الى الكوخ، أغلق بابه فرأى الأبرص جالساً على المرقاة. أما الكفن الذي كفن به فقد سقط حتى أعلى فخذيه، بينما اختفى كتفاه وصدره وذراعاه الناحلان تحت كتل من البثور ذات القشور. وظهرت على

جبينه غضون وتجعدات كأنها أخاديد حفرتها سكة الفلاحة في أرض زراعية.

وكان للأبرص عند موضع أنفه ثقب كما الهيكل العظمي تماماً. ثم إن شفتيه الضاربتين الى الزرقة تتصاعد منهما رائحة كريهة وكثيفة كالضباب.

قال ذلك الأبرص:

- « إني جائع! »، فأعطاه جوليان ما كان عنده من الطعام: قطعة صغيرة من شحم الخنزير، وفتات رغيف من الحنطة السوداء. وعندما التهمها أصبحت الطاولة والجفنة ومقبض المدية ملطخة جميعاً بالبقع ذاتها التي تلطخ جسمه. ثم قال: « إني عطشان! »، فذهب جوليان ليأتي له بأبريقه. وبينما هو يشرب منه خرج منه أريج شرح صدره ووسع منخريه. وكان ما يحويه ذلك الأبريق نبيذاً. وأي شيء نفيس وجده، ولكن الأبرص قدم ساعده الى الأمام، وشرب الإبريق كله جرعة واحدة وقال:

- « إني بردان »، فأشعل جوليان بشمعته الكبيرة حزمة من الخنشار وسط الكوخ. فدلف الأبرص الى حيث أوقدت النار يطلب الدفء، فجلس القرفصاء، وأخذت جميع أعضائه تهتز وترتعد ارتعاد المفرور. وخارت قواه، ولم تعد عيناه تلمعان،

وانفقأت بثوره فسال صديدها، ثم تمتم بصوت كاد أن يخفيه الوهن تماماً:

ـ « سريرك! »

وأعانه جوليان بهدوء على الانتقال الى سريره، وغطاه بغطاء زورقه. فأخذ الأبرص يئن ويتألم، وظهرت أسنانه عبر زاويتي فمه، بينما كانت تهز صدره حشرجة متسارعة، وينشق بطنه عند كل نفس تردد من أنفاسه، فتبدو فقراته. ثم أغمض جفنيه وقال:

ـ « أحس وكأن ثلجاً يستقر في عظامي! أُدنُ مني! ».

فاضطجع جوليان على الأوراق الصفراء جنباً الى جنب بالقرب منه. فأدار الأبرص رأسه وقال له:

ـ « إخلع ثيابك لأتدفأ بحرارة جسمك! »، فصدع جوليان بما أمره به الأبرص وتعرى من ثيابه ثم استلقى على السرير عارياً مثلما خلقه الله. وكان يحس جوليان بفخذه أن جلد الأبرص أشد برودةً من جلد ثعبان، وأنه يشبه المبرد في خشونته.

وحاول جوليان أن يشجعه وينهض من عزيمته فكان الأبرص يجيبه لاهثاً:

ـ « آه! سأموت بعد قليل،.. إقترب مني وامنحني الدفء، لا بيديك بل بكل جسمك ».

فتمدد جوليان فوقه تماماً، واضعاً فمه على فمه وصدره على صدره، فعانقه الأبرص، وفجأة اكتسبت عيناه لمعاناً كالنجوم تألقاً واستطال شعره استطالة أشعة الشمس، بينما أصبح نفسه لطيفاً كالورد.

وتصاعدت من الكوخ سحابة من البخور، بينما الأمواج تنشد وتغني. وان فيضاً غامراً من النعيم، وفرحاً يفوق الطاقة البشرية حلا في نفس جوليان وغشياها كما يغشى الفيضان ما حوله من الأرض. فابتهج بذلك الى أبعد الحدود بينما الأبرص الذي يشد عليه بذراعيه، يكبر باستمرار حتى لامس رأسه وقدماه جدران الكوخ.

وطار السقف، واتسعت السماء، وصعد جوليان في الفضاء اللازوردي وألفى نفسه وجهاً لوجه أمام سيدنا يسوع الذي نقله الى السماء.

كانت هذه قصة القديس جوليان المضياف (لوسبيتالييه) مثلما توجد بالتقريب على الواجهة الزجاجية لإحدى الكنائس في بلدي.

هيروديا



١

كان حصن ماخيروس[١] يقع شرقي البحر الميت على قمة جبل من صخور البازلت، مخروطية الشكل، يحيط به أربعة أودية سحيقة، إثنان عن جانبيه، وواحد قبالته، أما الرابع فيقع أبعد من الأخير بقليل. وعند قاعدته تكتظ المنطقة بالمنازل ضمن جدار يمتد متعرجاً عبر مستويات متفاوتة من الأرض.

وكانت المدينة تتصل بالحصن عبر طريق متعرجة، وأسوار الحصن تتطاول الى علو مئة وعشرين ذراعاً وتحتوي على زوايا كثيرة وفتحات تستعمل مرامي للسهام تقوم على أطرافها.

وهنا وهناك أبراج هي زينة تلك الأسوار المنتصبة فوق الجرف.

وتجد داخل الحصن قصراً مزداناً بممرات تغطيها قباب تستند الى أعمدة تحتها، كما يحتوي على رصيف مشجر مزود بدربزين من خشب الجميز حيث صفت الأعمدة والأوتاد من أجل إقامة خباء واق من الشمس والمطر.

---

(١) حصن ماخيروس هو حصن يقع شرقي البحر الميت على تخوم فلسطين. وقد تنازع عليه الرومان واليهود طويلاً. استعاده هيرودوس وحصنه تحصيناً قوياً.

صباح أحد الأيام، وقبل انبثاق نور النهار، جاء هيرودوس أنتيباس رئيس محمية الجليل واستند بمرفقيه داخل ذلك الخباء وأرسل طرفه. وأخذت الجبال المنتصبة من تحته مباشرة تبدو له شيئاً فشيئاً وجزءاً فجزءاً، فظهر أول ما ظهر له منها رؤوسها، بينما بقي جسمها يغرق في الظلام. وكانت تسبح في الفضاء سحابة من الغيم، تمزقت وتشتت شملها فظهرت أطراف البحر الميت.

كان الفجر يتنفس خلف حصن ماخيروس فينشر الحمرة على ما طلع عليه. فلقد أضاء منذ قليل رمال الحصباء، ونشر نوره على الروابي والصحراء، ثم على بقية جبال اليهودية[1] مبرزاً سطحها المائل الوعر، ذا اللون الرمادي. وكانت عين جدي تبدو كالحاجز الأسود وسط المنطقة. وحبرون الخليل الواقعة في العمق بدت مستديرة كقبة من القباب. وعسقلان تحتوي على أشجار الرمان، بينما الكرمل تحوي حقولاً بأسرها من السمسم، أما برج أنطونيا فيطل بمكعبه الهائل على القدس.

وحول رئيس محمية الجليل بصره عن تلك المشاهد ليتأمل أشجار النخيل في أريحا. وفكر في مدن الجليل الأخرى مثل

---

(١) اليهودية منطقة في فلسطين واقعة بين البحرين الميت والمتوسط.

كفرناحوم وعين دور والناصرة وطبريا التي ربما لن يعود اليها مرة اخرى.

وفي هذه الأثناء كانت مياه نهر الأردن تنساب هادئة على السهل القاحل الذي بهر الأبصار كأنه بساط من الثلج فرش على الأرض.

وتبدو البحيرة الآن ذات لون لازوردي. وعند رأسها الجنوبي من ناحية اليمين شاهد انتيباس ما كان يخشى أن يراه. لقد رأى خياماً سمراء هنا وهناك، ورأى رجالاً مسلحين بالرماح يتنقلون بين الجياد، بينما تضيء النيران الآخذة بالخمود من حولهم كالشرر المنقدح على مستوى الأرض. هؤلاء الرجال هم جماعات تابعة لملك العرب الذي طلق فتاة تزوجها من بين بناتهم لكي يتزوج أخرى هي هيروديا التي تزوجها أحد إخوته، وهذا الاخير كان يعيش في إيطاليا غير مطالب بالسلطة ولا مدع الحق فيها.

كان انتيباس ينتظر مساعدة الرومان، ولكنه ساوره قلق عظيم مرده تأخر فيتيليوس والي سوريا، عن المجيء لإنقاذه. فلربما سعى به أغريبا أخ هيروديا لدى الامبراطور.

وأما أخوه الثالث، عاهل باتانيا، فقد كان يتسلح سراً. لقد سئم اليهود تقاليد هيرودوس الوثنية، ومل الجميع تسلطه وهيمنته عليهم، من اليهود وغيرهم، الى درجة انه كان يتردد

بين مشروعين: تهدئة العرب، أو عقد حلف مع البارثيين.

وبحجة الاحتفال بعيد ميلاده دعا الى مأدبة كبرى قادة جنده، وقادة حملاته.

وألقى نظراته الفاحصة على الطرقات فوجدها خاوية خالية. وكانت بعض النسور تحلق فوق رأسه، بينما الجنود نائمون على امتداد جدران سور الحصن. وكل شيء في القصر ران عليه سكون عجيب.

وفجأة إنطلق صوت من بعيد كأنه إنفلت من أحشاء الأرض، فامتقع لون رئيس محمية الجليل وانحنى ليصيخ السمع الى ذلك الصوت، لكنه إختفى، ثم عاد، فضرب أنتياس كفاً بكف وصاح منادياً: « مناعي! مناعي! »

وتقدم رجل عار حتى خاصرته كالمسدين العاملين في الحمامات. إنه طويل القامة، هزيل، شديد النحول، يحمل على خاصرته ساطوراً في غمد من البرونز. أما جبهته الطويلة فكان يزيدها طولاً الى حد كبير شعره المسرح تسريحة ارتفعت به الى أعلى. وكان به فتور نزع البريق من عينيه. ولكن أسنانه تلمع. إنه يضع أصابع قدميه على البلاط بخفة ورشاقة، وكل أعضاء جسمه تتمتع بليونة القردة. ولكن وجهه يغرق في برودة وفتور كمومياء لا حياة فيها. وسأله انتيباس قائلاً:

« أين هو؟ »، فأجاب مناعي مشيراً بإبهامه الى شيء من الأشياء خلفهما قائلاً:

- « لا زال هنا! » فأجاب انتيباس:

- « حسبت إني اسمعه! »

وعندما تنفس انتيباس الصعداء استخبر عن لوكانان، وهو الذي يسميه اللاتينيون القديس يوحنا المعمدان.

وسأل رئيس محمية الجليل عما إذا كان أحد قد شاهد الرجلين اللذين تم قبولهما في سجنه الشهر الماضي تساهلاً منه وتسامحاً. وسأل أيضاً إذا كان أحد يعلم ماذا جاءا يفعلان منذ ذلك الحين. فأجاب مناعي قائلاً: - « لقد تبادلا مع لوكانان مساء، وعند منعطفات الطرق، أحاديث تكتنفها الألغاز والأسرار، وكأنهم لصوص. ثم ذهبا الى منطقة الجليل الأعلى معلنين أنهما سيحملان خبراً عظيماً ».

فأخفض أنتيباس رأسه ثم قال لمناعي، وقد اعتراه ذعر شديد:

- « إحتفظ به إحتفظ به! ولا تسمح لأحد بالدخول! واغلق الباب جيداً، وغطِّ الحفرة !لا يجب حتى الاشتباه بأنه على قيد الحياة ».

كان مناعي يطبق هذه التوصيات دون أن يتلقى الأمر

بتنفيذها، ذلك بأن! لوكانان يهودي، وهو يكره اليهود شأنه في ذلك شأن سائر السامريين.

فمعبدهم المسمى جرزيم الذي عينه موسى ليكون قطب إسرائيل، لم يعد له وجود منذ تربع الملك هيركان على العرش[1].

فمعبد القدس كان يثير اليهود ويسخطهم معتبرين أنه سبة في جبينهم، ويشعرهم بظلم دائم مقيم. فدخل اليه مناعي ليدنس مذبحه بعظام الموتى. ولقد ضربت أعناق أصحابه لأنهم كانوا أبطأ منه في تنفيذ ذلك الأمر.

رأى مناعي هيكل جرزيم بين رابيتين. وكانت الشمس تجلي للعين أسواره الرخامية البيضاء، تجليها رائعة مشرقة متألقة. كذلك الصفائح الذهبية التي تزين سقفه.

كان كجبل مضيء يشع بالأنوار، كان شيئاً يفوق المستوى البشري ويتفوق على كل شيء برحابته وشموخه. فمد لوكانان ذراعيه ناحية جبل صهيون ولعنه، بينما انتصب بقامته المستقيمة وأطبق قبضتيه معتقداً أن للكلمات سلطة تنفيذية عملية.

---

(١) هيركان هو الكاهن الأكبر وملك اليهود. وهو الذي دمر معبد جرزيم السامري المنافس لمعبد القدس. وبعدما تعاقبت عليه الأقدار وتقلبت، قتل بأمر من هيرودوس الذي اتهمه بالتآمر مع العرب.

وأنتيباس يصغي فلا يبدو عليه أنه صدم أو جرح بهذا الكلام. وقال السامري أيضاً:

ـ « إنه يتحرك من وقت الى آخر، ويود لو يلوذ بالفرار. فهو يرجو خلاصاً. وفي مرات أخرى يبدو عليه الهدوء والسكينة كحيوان مريض أو أراه يمشي في العتم مردداً هذه العبارة:

« وما هم؟ فلكي يزداد هو يجب أن أنقص أنا ».

وتبادل أنتيباس ومناعي النظرات. ولكن أنتيباس تعب من التفكير.

فكل هذه الجبال المنتصبة من حوله والتي تشبه طبقات من الأمواج الهائلة المتحجرة، وتلك الوهاد السوداء في خاصرة الصخور، والسماء بزرقتها اللازوردية، وتفجر الضياء بطلوع النهار، وعمق اللجج والوهاد، كل ذلك كان يكدر أنتيباس ويقلقه.

انتابه حزن عظيم عندما رأى الصحراء التي ترسم بأشكالها الخالية من أي نظام أو انسجام، مدرجات لملاعب قديمة وقصوراً مهدمة مدكوكة.

والرياح الحارة تحمل معها بالإضافة الى رائحة الكبريت،

رائحة اخرى كأنها فوح تصاعد من المدينتين الملعونتين المدفونتين تحت المياه الثقيلة للبحر الميت[1].

إمارات الغضب هذه التي راها في الطبيعة من حوله كانت تبث الذعر في قلبه، وتزرع القلق في نفسه بشكل كبير. فلقد بقي أنتيباس متكئاً على الدربزين بمرفقيه، عيناه جامدتان، وكلتا يديه على صدغيه. وبينما هو كذلك لمسه أحدهم لمساً خفيفاً، فاستدار ليراه، فألفى هيروديا أمامه وهي ترتدي ثوباً أرجوانياً فضفاضاً سابغاً يغطي جسمها حتى قدميها. خرجت من غرفتها بسرعة، لا يزين جيدها عقد أو يتدلى من أذنيها قرط. وتدلت ضفيرة من شعرها الأسود على أحد ذراعيها واندست متوغلة حتى بلغت الى ما بين نهديها.

وأخذ منخراها يختلجان، وأضاءت فرحة النصر سحنتها، ثم هزت أنتيباس صائحة بصوت جهوري:

- « قيصر يحبنا! أغريبا في السجن! » فقال لها:
- « من أنبأك هذا؟ » فأجابت هيروديا:
- « أنا أعرف! » وأضافت:
- « ذلك لأنه تمنى أن تصير الامبراطورية الى كايوس! »

---

(١) هاتان المدينتان هما سدوم وعمورة اللتان يغمرهما البحر الميت.

إن زنزانات يوليوس قيصر من الصعب فتحها، وفي بعض الأحيان تكون الإقامة فيها غير مأمونة العواقب! »

وفهم أنتيباس قصدها. فرغم أن هيروديا أخت أغريبا، إلا أن نواياها التي تحمل القسوة والشراسة نحو اخيها بدا لها في نظره ما يبررها. فهذه الاغتيالات كانت نتيجة منطقية تتفق وطبائع الأشياء، وقدراً محتوماً للبيوتات الملكية. أما في بيت هيرودوس، فإن هذه الاغتيالات كانت أكثر من أن تعد وتحصى.

ثم عرضت هيروديا خطتها على النحو الآتي:

نشتري العملاء، ونفتح الرسائل، ونضع العيون على كل باب من الابواب. ثم عرضت كيف أنها توصلت الى إغراء أوطيخا الواشي النمام، وأضافت:

ـ « لم يكن ذلك يكلفني شيئاً. لكنني ألم أفعل من أجلك أكثر مما فعلت لنفسي؟... لقد تركت ابنتي من أجلك! »

بعد طلاقها كانت هيروديا قد تركت في روما هذه الطفلة وعندها وطيد الأمل والرجاء أن الله سيرزقها أولاداً غيرها من زوجها أنتيباس رئيس محمية الجليل. ولم تتحدث عن ذلك قط لأي إنسان. وتساءلت عن سر شعورها الغامر بالرقة والحنان.

كان الخباء قد نصب، وجيء بعدد كبير من الأرائك والحشايا العريضة فاستلقت هيروديا عليها خائرة منهارة،

وأخذت تبكي مديرة ظهرها لمن كان في الخباء، ثم مدت يدها الى جفنيها وقالت إنها لم تعد تريد أن تفكر في هذا الأمر، وإنها تلفي نفسها سعيدة. وأخذت تذكر انتيباس بأحاديثهما الخالية هنالك في صحن الدار، كما تذكره بلقاءاتهما عند أفران التجفيف. كذلك ذكرته بنزهاتهما على امتداد الطريق المقدسة، والامسيات التي قضياها في الدارات الكبرى على خرير نوافير المياه، وتحت أقواس الزهور أمام الحملة الرومانية.

كانت ترمقه بنظراتها مثلما فعلت في الزمن الخالي، ترمقه وقد حفت صدرها بصدره وداعبته بحركات مغناجة. فصدها أنتيباس ولم يستجب لها ولحركاتها، ذلك بأن الحب الذي كانت تحاول إضرام ناره من جديد في صدره، قد مضى عليه الآن زمن بعيد بعيد! وإن كل شقاء في دنياه ناتج عن ذلك الحب التليد. ذلك بأن الحرب متواصلة منذ اثني عشر عاماً تقريباً ومن غير انقطاع. ولقد أصبح أنتيباس بعدها طاعناً في السن، فظهر كتفاه محدودبين تحت ثوبه الأسود الفضفاض الذي طرزت حواشيه بخيوط بنفسجية. ويختلط شعر رأسه الأبيض بشعر لحيته، بينما الشمس المتسللة بأشعتها الى خبائه تغمر بالنور جبهته التي بدت عليها قسمات الحزن وملامح الأسى. وإن جبهة هيروديا كانت مجعدة أيضاً.

وراحا، جالسين وجهاً لوجه، ينظر كل منهما الى الآخر نظرات النفور.

وأخذت طرقات الجبل تغص بالناس، فالرعاة يهمزون ثيرانهم، والأطفال يجرون حميراً وراءهم، وسائسو الخيل يقودون جيادهم. أما أولئك الهابطون من الأماكن الشاهقة وراء حصن ماخيروس ، فقد كانوا يتوارون عن الأنظار خلف القصر، بينما آخرون غيرهم يصعدون الوادي من الجهة المقابلة، وعندما يصلون الى المدن ينزلون ويفرغون ما يحملونه من حقائب في الباحات. هؤلاء الرجال هم ممونو رئيس محمية الجليل، والخدام الذين يسبقون المدعوين.

ولكن ظهر الى الجهة اليسرى من ذلك المكان المشجر شخص من طائفة الأشونيين[1]، حافي القدمين، يرتدي ثوبه الأبيض ويبدو عليه العزم ورباطة الجأش، فأسرع مناعي من الجهة اليمنى مستلاً خنجره، فصاح به هيروديا قائلة:

ـ « اقتله! »

وصاح به رئيس محمية الجليل قائلاً:

ـ « قف! »

---

(١) الأشونيون هم فرقة من المتقشفين الزاهدين، عاشت شمالي نهر الأردن منذ عهد سحيق.

فجمد مناعي في مكانه لايبدي حراكاً، كذلك فعل الاشوني وسار كل منهما خطوات الى الوراء، متراجعين، يرمق الواحد منهما الآخر بنظرات الريبة والحذر. وقالت هيروديا:

ـ « إنني أعرفه! اسمه فانويل، وهو يسعى الى رؤية لوكانان لأنك تحرص على الاحتفاظ به لديك! »

وتدخل أنتيباس ليقول لها إنه يمكن أن يكون له عمل يقوم به لخدمتنا في يوم من الأيام. وإن هجماته ضد مدينة القدس قد أكسبتهم البقية الباقية من اليهود. فأجابته هيروديا:

ـ « لا! إنهم يقبلون جميع القادة في صفوفهم، لكنهم غير قادرين على أن ينشئوا وطناً! » وأضافت:

ـ « أما ذلك الذي كان يمني الشعب بآمال عذاب لم تتحقق منذ عهد نحمياس، فإن السياسة الفضلى هي القضاء عليه ».

فأجاب أنتيباس انه ليس مستعجلاً. ثم قال: لوكانان خطر!؟ يا للمهزلة! وراح يتصنع الهزء به. فقالت له هيروديا:

ـ « إخرس! »

ثم أعادت على مسامعه قصة الاهانة التي حلت بها يوم كانت ذاهبة الى جلعاد لحصاد البلسم، فقالت:

ـ « كان على شاطىء النهر أناس يرتدون ثيابهم، وكان أحد الرجال يتحدث من على متن دابته المتوقفة به في مكان

منعزل منه. وكان الجلد حول خاصرته جلد جمل من الجمال، بينما رأسه يشبه رأس أحد الأسود. وحالما بصر بي رماني بكل لعنات الأنبياء. وكانت حدقتاه تلمعان متوقدتين، وصوته يدوي مزمجراً، ثم رفع ذراعيه في غضب شديد وكان الفرار مستحيلاً. كانت الرمال تغطي عجلات عربتي حتى محورها، وأنا أبتعد رويداً رويداً تحت ستار معطفي، وقد لبثت مسمرة بلا حراك من اللعنات التي انهالت عليّ كعاصفة من المطر! »

كان لوكانان يمنع هيروديا من أن تحيا حياتها الطبيعية من فرط توجسها منه. فعندما اعتقل لوكانان وأوثق بالحبال كان على الجنود أن يقتلوه إن هو حاول المقاومة، ولكنه كان لطيفاً لا يعرف العنف. لقد وضعوا الثعابين في سجنه، فنفقت كلها.

وملأ عدم جدوى هذه المكائد قلب هيروديا غيظاً وغماً ومن جهة أخرى، فإن الحرب التي يشنها عليها ذلك الرجل ليس لها ما يبررها. فما هي المصلحة التي تحركه وتدفع به الى الحرب؟

هذه الأحاديث التي ألقيت على مسمع من الجماهير راجت وانتشرت فكانت هيروديا تسمعها في كل مكان مالئة الجو بأصدائها. فلو أنها واجهت جيشاً لجباً بجحافله وفيالقه لقاتلته ببسالة وشجاعة. لكن هذه القوة الأشد فتكاً من النصال، والتي لا يمكن القبض عليها، هي مذهلة حقاً.

وجازت هيروديا المكان المشجر وقد امتقع لونها من فرط غيظها وغضبها، ولم تجد الكلمات التي تعبر بها عما أمسك بخناقها وكاد أن يخمد أنفاسها. كما كانت تفكر في أن أنتيباس قد يطلقها، نزولاً على طلب الرأي العام. وإذاً، فخسارة كل شيء واقعة محققة!

منذ طفولتها كانت تعلل النفس بالآمال في أن تصبح مالكة لإمبراطورية عظيمة. ولكي تبلغ الى هذا الهدف، تركت زوجها الأول وتزوجت برئيس محمية الجليل الذي خدعها، على ماتعتقد. ولقد قالت له:

ـ « يا للسند الذي حصلت عليه عند انتسابي الى عائلتك! »

فأجابها أنتيباس بكل بساطة:

ـ « إن عائلتي توازي عائلتك! »

فأحست هيروديا أن دم أجدادها من الكهنة والملوك يغلي في عروقها، فأجابته:

ـ « ولكن جدك كان يكنس معبد سقلان! وأجدادك الآخرون كانوا رعاة للماشية، لصوصاً وسائقي قوافل. كانوا عشيرة من الرحل منذ ولاية الملك داود. إن كل أجدادي غلبوا أجدادك وقهروهم! وإن كبير المكابيين طردكم من حبرون الخليل وأجبركم الملك هيركان على الاختتان! »

وعابت هيروديا عليه لا مبالاته إزاء الاهانات، ومواقفه المائعة من الفريسيين الذين خانوه على الدوام ، كما نعت عليه جبنه أمام الشعب الذي كان يضمر لها العداء والبغضاء. نعت عليه جميع هذه المواقف مظهرة احتقارها لكل ما هو سوقي بصفتها من نبيلات الرومان وأشرافهن. كما نعت عليه كره يعقوب لآدم.

وأضافت:

ـ «أنـت تكرهني على شاكلة هذا الشعب ومثاله، إعترف بذلك! وإنك لتأسف على الفتاة العربية التي تـرقص حول الحجارة. إسترجعها! إذهب وعش معها في خيمتها والتهم خبزها الذي نضجته تحت الرماد! واشرب لبن نعاجها، قبل خديها الزرقاوين! ودعني في زوايا النسيان!»

وما عاد أنتيباس يصغي اليها، بل ينظر الى صبية وامرأة عجوز تقفان على سطح بيت من البيوت. أما العجوز فكانت تحمـل مظلة واقيـة من الشمس ولـظاهـا، ذات قبضـة من القصب، وطويلة مثل قصبة صياد السمك. وفي وسط البساط بقيت سلة كبيرة للسفر مفتوحة، وكانت تخرج منها الأحزمة والمناديل والجواهر المتدلية من الأقراط، تخرج جميعها بشكل مشوش وغير منتظم. وكانت الفتاة تنتحني من حين الى حين نحو هذه الأشياء وتلوح بها في الفضاء.

وهي ترتدي على طريقة الفتيات الرومانيات جلباباً مجعداً عليه مشمال تتدلى منه ذؤبات من الزمرد، بينما تمسك قطع من الجلد الأزرق بشعرها البالغ الثقل والكثافة غالب الظن، لأنها كانت تمد اليه يدها بين الفينة والفينة.

وكان شبح المظلة يتنقل فوقهافيحجب نصفها عن العيون. ولقد رأى أنتيباس عنقها الرقيق، وزاوية إحدى عينيها، وطرفاً من فمها الصغير، رأى ذلك مرتين أو ثلاثاً. ولكنه كان يرى قامتها برمتها، من ردفيها الى عنقها، يراها وهي تنحني ثم تنتصب قائمة واقفة بطريقة لا تنقصها المرونة ولا الرشاقة.

لقد كان يراقب بدقة اللحظة التي تعيد فيها هذه الحركة، يراقب ذلك وقد تسارعت أنفاسه واتقدت بالنيران عيناه. كانت هيروديا تراقبه، فسألها:

- « من هي هذه الفتاة؟ »

فأجابته بأنها لا تعرف عنها شيئاً، ثم انصرفت حالما سكت عنها الغيظ وهدأت أعصابها.

كان أنتيباس ينتظر تحت الرواق أناساً من سكان الجليل من مثل رئيس قسم المحررات ومسؤول المراعي ومدير مناجم الملح، وأحد اليهود من سكان بابل يقود فرسانه. فحيا الجميع أنتيباس بالهتاف والتهليل. ثم دخل الأخير في اتجاه غرف القصر الداخلية وتوارى عن الأنظار.

وظهر فانويل فجأة عند زاوية أحد مداخل القصر، فقال له أنتيباس:

ـ « آه! أنت أيضاً! أكيد أتيت من أجل لوكانان، فأجابه:

ـ « ومن أجلك أيضاً! فإن لدي شيئاً خطيراً جئت لأنبئك به ».

ولم يترك فانويل أنتيباس، بل دخل الى جناح مظلم، وهو يسير خلفه.

كانت آخر خيوط النهار تنسحب عبر إحدى النوافذ المشبكة الممتدة تحت الطنف.

كانت الأسوار مطلية بطلاء روماني أحمر ضارب الى السواد. وفي الداخل تجد سريراً مصنوعاً من خشب الأبنوس يحتوي على أحزمة من جلد الثور، وفوقه ترس ذهبي معلق يشع نوراً كأنه شمس ساطعة.

إجتاز أنتيباس الغرفة كلها ثم اضطجع على السرير. وكان فانويل واقفاً، فرفع ذراعه وقال كما لو أنه ينطق بوحي:

ـ « إن العلي الأعلى يرسل على فترات متعاقبة أحد أبنائه.

ولوكانان هو واحد من أولئك الأبناء، فإن ظلمته وجرت عليه فسيحل بك العقاب ». فصاح أنتيباس.

ـ « إنه هو الذي يضطهدني! لقد أراد مني أن آتي عملاً مستحيلاً. فهو يعذبني منذ ذلك الحين. ولم أكن بادىء الأمر

قاسياً! أرسل من ماخيروس رجالاً ليزرعوا البلبلة ويبثوا الفوضى في أقاليمي، فالويل له! إنني أدافع عن نفسي باحتجازه لدي لأنه هو الذي يهاجمني! »

فأجاب فانويل:

- « إن غضبه يتفجر تفجراً عنيفاً صاخباً الى أقصى حد! ولكن لا يهم! فإنه يجب تخليصه مما هو فيه الآن ».

فقال رئيس محمية الجليل:

- « إن الحيوانات الهائجة لا يطلق لها سراح! »

فأجابه فانويل قائلاً:

- « لا تقلق بعد الآن! فإنه سيذهب الى العرب، والى الغاليين ثم الى قوم ياجوج وماجوج، فإن عمله يجب أن يمتد الى أقاصي المعمورة ».

وكان يظهر على أنتيباس أنه غارق في تأملاته ورؤاه، فخرج منها ليقول:

- « إن قدرته لعظيمة! . . . ورغماً عني فإنني أحبه! »

فقال فانويل:

- « إذاً فيلطلق سراحه؟ »

فهز أنتيباس رأسه. كان يخشى من هيروديا ومناعي ومن المجهول.

وحاول فانويل جاهداً اقناعه بأن يطلق سراحه. وقد تذرع

ضمان ذلك بخضـوع الأشونيـين للملوك. وتابـع يقول إن
هؤلاء الرجال المساكين يحتـرمهم الناس، فهم لا يسلسـون
قيادهم عن طريق التعذيب. إنهم يلبسون الخشن من الثياب،
ويقرأون مستقبلهم في النجوم.

وتذكر أنتيباس كلمة قالها له فانويل قبل قليل، فتوجه اليه
سائلاً إياه:

- « ما هو ذلك الشيء الذي أخبرتني انه مهم؟ »

فظهر فجأة عبد أسود، وقد غطى جسمه الغبار فصار أبيض
البشرة بعد سواد. كان هذا العبد يغمغم وينطق بكلام غير
واضح، فلم يتمكن من أن يلفظ سوى هذه الكلمة:

- « فيتيليوس! »

- « كيف؟ إنه آت؟ »

- « لقد رأيته! إنه هنا منذ الساعة الثالثة ».

فتحركت ستائر الممرات وكأن ريحاً هبت عليها. وملأت
القصر الضوضاء وحركة الذين يركضون فيحـدثون الصخب
الضجيج. وزاد على ذلك كله تحريك قطع الأثاث، وسقوط
الآنية الفضية.

ومن على أبراج القصر كانت الأبواق تُنفخ لتنبه العبيد
المشتتين هنا وهناك.

٢

عندما دخل فيتيليوس الى باحة القصر، كانت الأسوار تغص بحشود من البشر كبيرة. وكان يستند الى ذراع مترجمه، بينما يتبعه محمل كبير أحمر، يزينه الريش والمرايا. كان يرتدي ثوباً فضفاضاً، عليه قطعة قماش قرمزية تزين صدره، وينتعل حذاء ضخماً على غرار القناصل، ومن حوله ينتشر حملة الفؤوس. فوضع هؤلاء رزمهم الاثنتي عشرة، وهي عبارة عن قضبان صغيرة ضمت بعضها الى بعض بواسطة أحزمة جلدية، وفي وسطها فأس. وارتعد الجميع أمام جلال الشعب الروماني.

وتوقف المحمل الكبير الذي كان يحركه ثمانية من الرجال، وخرج منه فتى مراهق، ضخم البطن، يتهلل وجهه بشراً، وتغطي بشرته البثور، بينما تزين الجواهر أصابع يديه بأسرها. فقدمت له كأس مترعة بالنبيذ والطيب، فشربها وطلب كأساً أخرى مثلها.

جثا أنتيباس على ركبتيه أمام الوالي الروماني، وقد أحزنه وحز في نفسه، كما قال، عدم معرفته المبكرة بوجوده الكريم بينهم. ولو علم به في وقت مبكر لأعطى أوامره بتنظيم كل ما

يلزم إعداده لفيتيليوس وعائلته. فإنهم ينحدرون من نسل الالهة فيتيليا. وهناك طريق يؤدي من بلدة جانيقول الى البحر، لا يزال يحمل اسمهم. وإن مناصب وزارة المال والمفوضية كانت أكثر من أن تحصى في هذه العائلة.

أما بلوسيوس فيتيليوس، والد إمبراطور المستقبل الشاب أولوس فيتيليوس، والذي هو ضيف على رئيس محمية الجليل، فقد وجب شكره بصفته المنتصر على «كليت» ولكونه والد أولوس. وكان يبدو أنه عاد الى ممتلكاته لأن الشرق موطن الآلهة.

هذه المبالغات عبّر عنها أنتيباس باللاتينية، فقبلها فيتيليوس ببرود وفتور، وأجاب إن الأمة حسبها مجداً بهيرودوس العظيم، وإن الآثنيين كانوا قد أوكلوا اليه الاشراف على الألعاب الأولمبية، فبنى المعابد إكراماً لأوغسطس، وكان صابراً حصيفاً، ومخيفاً مرعباً، كما كان أميناً مخلصاً للقياصرة على الدوام.

وشوهدت هيروديا تتقدم كالإمبراطورة بين الأعمدة ذات التيجان الفولاذية ووسط نساء وخصيان يحملون العطور الحمراء القانية على أطباق من الفضة المذهبة. فخطا الوالي الروماني ثلاث خطوات نحوها ليلتقي بها. وهتفت هيروديا قائلة، وقد طأطأ رأسه تحية لها وإجلالاً:

- « إنها لسعادة غامرة ان يصبح أغريبا بعد اليوم، وهو عدو القيصر، عاجزاً عن أن يُلحق الأذى! »

كان الوالي جاهلاً لما حدث. وبدا له أن هيروديا إمرأة خطيرة.

وعندما أقسم أنتيباس إنه سيفعل كل شيء من أجل الإمبراطور، قال له فيتيليوس:

- « حتى لو تم ذلك على حساب الآخرين؟ »

كان فيتيليوس قد حرر رهائن محتجزين لدى ملك البارثيين. إلا أن الأمبراطور تجاوز ذلك لأن أنتيباس الذي حضر المؤتمر، أرسل فوراً بهذا النبأ كيما يدعي لنفسه مزايا لا يملكها. وهذا هو سبب الحقد الدفين الذي يكنه فيتيليوس لأنتيباس وسبب تأخيره النجدات عنه.

وتعلثم رئيس محمية الجليل أنتيباس، ولكن أولوس فيتيليوس قال له ضاحكاً ومطمئناً:

- « هون عليك، فانيْ سأحميك! »

فتظاهر انتيباس بأنه لم يسمع ما قاله أولوس، فلقد كان مصير الأب معلقاً بتلطيخ سمعة الابن، وزهرة وحول كابريه هذه تدر عليه من الفوائد درجة جعلت الناس يحيطونه بعنايتهم واهتمامهم مع شيء من الحذر لأن هذه الزهرة كانت سامة. وارتفعت الجلبة وثار الضجيج عند باب القصر، فأدخل اليه

صف من الأخفاف البيض يحملها أشخاص يرتدون زي الكهنة، هؤلاء هم الصدوقيون والفريسيون الذين لهم طموحات مشتركة في ما يختص بحصن ماخيروس.

كان الصدوقيون يودون الحصول على حق تقديم الذبائح والقرابين.

أما الفريسيون فكانوا يريدون الاحتفاظ بالحصن.

كانت وجوه هؤلاء وأولئك تبدو عليها الكآبة والغم، لا سيما وجوه الفريسيين أعداء روما وأعداء أنتيباس.

كانت حواشي ثيابهم تربكهم أثناء الزحام الشديد، وقلنسواتهم تتأرجح على جبهتهم فوق رقاقات شريطية صغيرة رسمت عليها بعض الكتابات.

وفي الوقت نفسه تقريباً وصلت طلائع الجند الى القصر. وكان هؤلاء قد وضعوا تروسهم ودروعهم في أكياس خاصة توقياً للغبار وحذراً. ووراءهم مرسيلوس الضابط المرافق للوالي، والموظفون الماليون المتأبطون ألواحاً خشبية صغيرة.

وقدم أنتيباس أسماء الشخصيات المهمة الذين كانوا يجلسون بجواره، وهم: طولماعي، وكانتيلرا، وسمعان، وعمونيوس صاحب الإسكندرية الذي كان يشتري له الأسفلت، ونعمان قائد جنود المناوشة، ولاسيم البابلي.

ولاحظ فيتيليوس وجود مناعي فقال:

ـ « ومن هو هذا الشخص؟ »

فأفهمه أنتيباس بحركة من يده أنه الجلاد.

ثم قدم اليه الصدوقيين.

وتوسل اليه جوناطاس الصدوقي، القصير القامة، والذي يتكلم اليونانية، توسل الى القائد أن يشرفهم بزيارة الى القدس، فأعطى بالتلبية وعداً غير أكيد.

وطالب أليعازر صاحب الأنف المعقوف والذقن الطويلة، طالب للفريسيين برداء الكاهن الأكبر الذي احتجزته السلطات المدنية في برج أنطونيا.

ثم وشى أناس من الجليل ببيلاطس البنطي. فبسبب مجنون كان يبحث عن آنية داود الذهبية في احد الكهوف بالقرب من السامرة، قتل بيلاطس بعض السكان، وتكلم الجميع في آنٍ معاً. وتحدث مناعي بشكل يفوق في عنفه الآخرين. فأكد لهم فيتيليوس أن المجرمين سيعاقبون.

وانفجر الناس بالصياح قبالة أحد الممرات المشجرة حيث علق الجنود تروسهم ودروعهم.

وعندما انحلت عقد الأكياس، ظهرت فيها التروس والدروع في وسطها قسم بارز يحمل صورة القيصر، وذلك ما يعده اليهود من التقاليد الوثنية. فوعظهم أنتيباس بينما كان فيتيليوس جالساً على مقعد مرتفع في واجهة القصر، وقد

اعترته الدهشة من هياج الناس هنـاك، فقال في نفسـه إن القيصر كان محقاً بإرساله أربعمئة منهم الى المنفى في جزيرة سردينيا، ولكنهم كانوا أقـوياء في بـلادهـم. ثم أمر بسحب الدروع منهم. عند ذلك أحاطوا بالوالي متضرعين متوسلين اليه أن يعوضهم عن مظالمهم وامتيازاتهم المفقودة، وما كان يغدقه عليهم من الانعامات.

كانوا يلبسون ثياباً ممزقة، ويدوس بعضهم بعضاً من فرط تزاحمهم.

وكان العبيد يضربون بعصيهم في كل اتجاه كي يتاح لهم إخلاء بعض الأمكنة من الجموع المحتشدة.

ومن كان منهم الى الباب أقرب نزلوا الى الممر، وتسلق آخرون الأشجار. وتوافد الناس بأعدادٍ غفيرة، فكان يلتقي تياران من البشر، فيؤلفون حشداً متعاظماً قد ضغط وقدر عليه حزام الجدران حركته فصاروا يتمايلون يمنة ويسرة.

وسأل فيتيليوس عن هذا الحشد الكبير من الناس، فذكر له انتيباس السبب وهو الوليمة التي أقامها ودعا اليها انتيباس لمناسبة عيد ميلاده. ثم قدم لفيتيليوس الكثير من رجاله وأتباعه الذين كانوا يجرون بالحبال سلالاً ضخمة من اللحم والفاكهة والخضار، وظباء وطيراً من فصيلة اللقلقيات، وأسماكاً عريضة ذات لون أزرق، وأعناباً وبطيخاً، ورماناً. هذه السلال الضخمة كانت تنتصب

كالإهرامات الشاهقات . فلم يأبه أولوس لهذا المشهد ، بل حث خطاه سريعاً إلى المطابخ يحمله اليها نهمه الذي طبقت شهرته الآفاق لغرابتها .

وعند مروره بـالقرب من أحـد الأقبية الصغيـرة شاهـد قدوراً تشبه الدروع. فجاء فيتيليوس ليشاهدها، وألـح أن تفتح له غرف الحصن الواقعة تحت الأرض.

لقد كانت هذه الغرف منحوتة في قلب الصخـور ذات العقود المرتفعة . كما أن فيهـا أعمدة تفصـل بينهامسـافات متساوية .

فـالغرفـة الأولى منها كـانت تحتوي عـلى لبوس الحـديد الضارب في القدم، أما الثانية فتمتلىء بالرماح القصيرة وقد امتدت رؤوسها بارزة من قلب شمالة من الريش.

وفرشت الغرفة الثالثة بحصير من القصب. ولكم كانت السهام الرقيقة محكمة في وضعها بشكل عمودي، الواحد منها الى جانب الآخر. بينما نصال السيوف العريضة المعقوفة تغطي جدران الغرفة الرابعة. أما صفوف الخوذات العسكرية فكانت تبدو مع رؤوس هذه السيوف كأنها كتيبة من الثعابين الحمر. ولكن الغرفة السادسة لم يكن يرى فيها سوى كنانات السلاح، بينما في السابعة لا تجد سوى لفافات جلدية يلف بها الجنود قسماً من سيقانهم. وفي الغرفة الثامنة تجد قطع القماش التي يضعها الجنود على سواعدهم

أما الغرف التالية فتجد فيها المذاري والخطافات الحديدية، والسلالم والحبال، وحتى الصواري التي تستعمل للمنجنيقات، والجلاجل التي توضع في اعناق الجمال!

وحيث ان الجبل يتسع كلما اتجهت من قمته إلى قاعدته، وبما أنه مفرغ من الداخل مثل خلية من خلايا النحل، فإنه كان يوجد تحت هذه الغرف غرف أخرى أكثر منها عددا واعظم عمقا.

وتجول فيها فيتيليوس ومترجمه فينيه، وسيزينا رئيس موظفي قسم الضرائب، تجولوا على أضواء المشاعل التي حملها ثلاثة من الخصيان.

كان في الظل أشياء من ابتداع البربر مثل العصي المحددة الرؤوس، المزودة بالمسامير؛ وكالرماح المسممة للجراح، والكلابات التي تشبه الواحدة منها فكي التمساح. وأخيرا، فإن رئيس محمية الجليل كان يحتفظ في حصن ماخيروس بمعدات حربية تكفي لأربعين ألف مقاتل.

ولقد كدس كل هذه المعيدات تحسبا منه لحلف يعقده أعداؤه في مابينهم. لكن الوالي كان يمكنه الظن أو القول إنها من اجل الاستعداد لقتال الرومان، لذلك فإنه كان يسعى للحصول على تفسيرات وايضاحات حول ذلك الأمر.

ولم تكن هذه المعدات له؛ فلقد كانت تستعمل من أجل الدفاع عن النفس ضد اعتداءات اللصوص. ومن جهة أخرى، فإن قسما منها كان لازما لقتال العرب؛أو انها كلها كانت لأبيه. وبدلا من أن يسير أنتيباس رئيس محمية الجليل خلف الوالي، كان يسير أمامه بخطى سريعة. ثم انتحى ليسير إلى جانب الجدار الذي كان يحجبه بردائه الفضفاض ممسكا طرفيه بمرفقيه، وقد باعد ما بينهما كيما تتسع رقعة ما حجب من الجدار. ولكن أعلى الباب كان يتجاوز ارتفاعه رأس أنتيباس. فلاحظ فيتيليوس هذه الغرفة المريبة وأراد ان يعلم ما بداخلها. وكان البابلي فقط هو القادر على فتحها، فقال فيتيليوس:

ـ «نادوا على البابلي!»

وانتظر الجميع حضوره.

كان والد الفتى البابلي قد اتى من شواطىء الفرات ليضع نفسه تحت تصرف هيرودوس العظيم، مع خمسمئة من فرسانه للدفاع عن الحدود الشرقية. وبعد تقسيم المملكة الرومانية، كان لاسيم قد بقي عند فيليب، وأصبح الآن في خدمة أنتيباس. فتقدم لاسيم وقوسه على عاتقه، وسوطه في يده. وكانت الأسلاك ذات الألوان المختلفة تلف ساقيه لفا قويا، وساعداه الضخمان يبدوان خارجين من رداء لا كم فيه، بينما

تحمي وجهه من الشمس قبعة مصنوعة من الفراء، أما لحيته فمجعدة وذات حلقات كثيرة.

في بداية الأمر بدا على لاسيم أنه غير مدرك لما يترجم له المترجم من أقوال وأحاديث، لكن فيتيليوس نظر إلى أنتيباس الذي كرر أمره بفتح الغرفة. فوضع لاسيم كلتا يديه على الباب فانزلق هذا منحدرا تحت الجدار. وتصاعدت نسمة من الهواء الحار من غياهب الغرفة وظلماتها. وكان أحد الممرات ينحدر نزولا لينتهي بانعطاف، فسلكوا هذا الممر ووصلوا إلى عتبة إحدى المغارات التي تتسع أكثر من غيرها من المغارات الواقعة تحت الأرض وفي أقصى هذه المغارة ينفتح صف من القناطر ويؤدي الى جرف ذي موقع يتيح الدفاع عن الحصن من تلك الجهة. ولقد سقطت أوراق معترشة تزين بخضرتها قبة الحصن. وعلى مستوى الأرض يسمع خرير مياه منتظمة في شبكة لها.

كان نحو مئة من الجياد البيض موجودة هناك، تقضم الشعير على لوح خشبي يرتفع الى مستوى خطم كل منها. وشعر أعناقها مطلي باللون الأزرق ، بينما تغطي أخفافها قفازات من الليف؛ أما الوبر الكائن بين آذانها يبدو كأنه شعر مستعار. وكانت هذه الجياد يضرب كل منها بذنبه باطن ركبته ضربا خفيفا لينا.

وعقدت الدهشة لسان الوالي الروماني عندما رأى ما رآه.

هذه الجياد رائعة حقا؛ فهي مرنة كالثعابين، رشيقة كالعصافير. كانت تنطلق فتسابق سهام فرسانها، وتقلب الرجال عاضة إياهم من بطونهم، وتخلص نفسها في المسالك الصخرية الوعرة، وتقفز فوق الحفر والهوات، وتبقى مواصلة عدوها بنشاط كبير في السهول طوال النهار. وبكلمة واحدة من سائسها تتوقف عن عدوها.

حين دخل لاسيم إلى ذلك المكان من الحصن، تقدمت الجياد منه مثلما تفعل الاغنام عندما يأتي راعيها. وكانت ترمقه بنظرات قلقة بريئة كنظرات الأطفال، مادة أعناقها إلى الأمام. وقد أطلق سائسها كالمعتاد، صرخة بحاء جعلت الجياد تتهلل سرورا. واخذت تقفز في الهواء تشكو جوعها إلى قطع المسافات وتطلب الانطلاق في الفلوات الرحبة.

وخوفا من أن يستولي فيتيليوس عليها عنوة، فإن أنتيباس حبسها في ذلك المكان المخصص للحيوانات في حالات الحصار.

قال الوالي:

- «إن الزريبة غير صالحة، وإنك لتجازف بحياة الجياد! إعمل بها جردة يا سيزينا!»

فسحب مأمور الضرائب دفتر المذكرات من حزامه

وأحصى الجياد ثم دون عددها. هذا، وإن عملاء الشركات المالية كانوا يرشون الولاة لكي ينهبوا الأقاليم الخاضعة لسلطانهم.

وصعد الجميع اخيراً إلى باحة القصر. وكانت الحلقات البرونزية الصغيرة هنا وهناك وسط البلاط، تغطي الصهاريج، فلاحظ الوالي أن أحد هذه الصهاريج أكبر من غيره، وليس له من أسفله رنة كرنة غيره من الصهاريج. فلقد ضربها بيده واحداً واحداً، ثم دوى صوته عنيفاً وهو يضرب بقدميه قائلاً:

- «وجدته! وجدته! هنا كنز هيرودوس!»

وإن البحث عن هذه الكنوز كان جنوناً من جانب الرومان.

فأقسم أنتيباس بأن لا وجود لمثل هذا الكنز. فقال له الوالي:

- «ولكن ماذا يوجد في اسفل ذلك الصهريج؟»

فأجابه أنتيباس:

- «لا شيء! فيه أحد الرجال! سجين من السجناء!»، فأجابه:

- «أرني إياه!»

لم يمتثل رئيس محمية الجليل، لئلا يعرف اليهود بسره.

وإن نفوره من فتح حلقة الصهريج جعل فيتيليوس يفقد الصبر، فصاح بحملة الفؤوس قائلاً:

ـ «إخلعوه!»

وعرف مناعي ما يشغلهم ويملك عليهم تفكيرهم واهتمامهم. وحين رأى أحد الفؤوس أمام عينيه ظن أن عنق لوكانان ستقطع، فأوقف حامل الفأس بعدما ضرب ضربته الأولى على صفيحة الصهريج، وأدخل بينها وبين البلاط صنارة معقوفة، فرفع الصفيحة بتمهل فوقعت على الأرض، وأعجب الجميع من الحاضرين بقوة هذا الشيخ الكبير. وكان يمتد تحت الغطاء الملبس بالخشب باب قلاب في حجم الغطاء. وبضربة واحدة من قبضته انطوى هذا الباب منقسماً لوحين مؤطرين من الخشب. وشوهد آنذاك أحد الثقوب وهو عبارة عن حفرة كبيرة تحيط بها سلم لا دربزين لها. أما أولئك الذين انحنوا عند حافتها فقد رأوا في قعرها شيئاً غامضا ومفزعاً لم يستطيعوا تحديده. كان هناك شخص مضطجعاً على الأرض يغطيه شعر طويل مختلط بوبر حيوان على ظهره؛ فنهض ذلك الشخص، بينما كانت جبهته تلامس حاجزاً مشبكاً أغلق أفقياً. ومن حين إلى حين يتوارى عن الأنظار في اعماق الكهف الذي حبس فيه.

كانت الشمس ترسل أشعتها إليه فتقع على رؤوس

القلنسوات فتلمع لمعاناً قوياً، ويجعل الكرات الصغيرة القائمة في اطراف السيوف تلمع أيضاً. كما كانت تجعل البلاط على درجة كبيرة من الحرارة، بينما انطلقت اليمامات من طنوفها محلقة في سماء باحة القصر. ولقد كان مناعي يلقي إليها بالحب عادة في مثل ذلك الوقت؛ جلس القرفصاء أمام أنتيباس الذي وقف بالقرب من فيتيليوس.

كان الحاضرون من سكان الجليل والرهبان، والجنود يتحلقون خلفهما. ويخيم على الجميع القلق والوجوم بانتظار ما سيحصل.

وانطلقت منهم بادىء الأمر تنهدات وزفرات بصوت أجش، فسمعتها هيروديا على الطرف الآخر من القصر. فاجتذبها ذلك وشد إنتباهها، فشقت صفوف الجماهير، وأخذت تصيخ السمع، وقد وضعت يدها على كتف مناعي وانحنت بجسمها الى الأمام.

وارتفع الصوت بهذه العبارات!

- «ويل لكم ايها الفريسيون والصدوقيون! يا نسل الأفاعي! أيتها القرب المنتفخة والصنوج الطنانة!»

كان الجمهور قد تعرف على لوكانان وصار يتردد اسمه بينهم، بينما هرع آخرون إلى هناك. وسمع المحتشدون عبارات من مثل:

- «ويل لك أيها الشعب! ويل لخونة مملكة يهودا! وويل لسكارى عفراييم، ولسكان الوادي الخصيب الذين يترنحون من سكرهم!

«فليتبددوا كالمياه الجارية وكالحيوانات المحارية التي تذوب عندما تزحف على الأرض، وكسقط المرأة الجهيض الذي لا يرى أنوار الحياة!»

وسمعت منهم كذلك هذه العبارات:

- «عليك يامؤاب أن تلتجىء إلى أشجار السرو كالجواثيم من الطير، وإلى الكهوف مثلما تفعل اليرابيع. إن ابواب الحصون ستتحطم بسرعة أكبر من تحطم قشور الجوز، وستنهار الجدران وتحترق المدن. ولن تتوقف ضربات الله. وسيعيد أطرافكم في دمائكم كما الصوف في إناء الصابغين، وسيمزقكم شر ممزق ويوزع خرق لحمكم بأسرها على الجبال المختلفة في هذه الدنيا!»

وقال قائل منهم: عن أي فاتح يتحدث ذلك الخطيب؟ وهل يقصد فيتيليوس؟ إن الرومان وحدهم قادرون على القيام بمثل هذه الابادة. وضج الحاضرون بالشكوى والتذمر، فقال أحدهم:

- «كفى! كفى! فلينه الخطيب خطابه!»

ولكن ذلك الخطيب تابع خطابه بصوت اعلى فقال:

ـ «سيجر الأطفال الصغار على الرماد بالقرب من جثث أمهاتهم وسيذهب الناس ليلاً ليبحثوا عن خبزهم بين الأنقاض مغامرين بحياتهم تحت ظلال السيوف. وإن بنات آوى سينتزعون عظام الموتى وينهشونها في الساحات العامة، وسيحدث ذلك مساء حيث تحدث العجزة ويسمرون. وسيعزف عذاراك على القيثارة في الولائم التي تقام في المهجر، فيشرقن بدموعهن، وسيحني أعظم أولادك جرأة وبسالة ظهورهم التي نزعت منها الجلود من فرط ما تعاقب عليها من ثقيل الأحمال».

كان الشعب يستعيد ذكريات أيام نفيه، ويتذكر المصائب والرزايا التي حلت به عبر تاريخه الطويل.

كانت هذه الأقوال كلمات نطق بها الأنبياء القدامى. فقد كان لوكانان يرسل تلك الكلمات فتحل حلول الكوارث واحدة إثر واحدة.

ولكن الصوت ما لبث أن تحول لطيفا، ناعما، متناغما. كان يبشر بالتحرير وبالجمال والبهاء السماويين، ويبشر بمولود جديد ذراعه في كهف التنين. كذلك يبشر بالذهب عوضا عن الفخار والصلصال، وبتفتح الصحراء كما الوردة في أكمامها. «وان ما تساوي قيمته الآن ستين كيكاراً[1] لن يساوي أوبولاً

(١) ـ الكيكار هو عملة ذهبية يهودية.

واحداً. وإن ينابيع من اللبن ستتفجر من الصخور الصماء! وسننام في المعاصر وبطوننا ملآى! متى ستأتي أيها الذي أرجو مجيئه؟ إن جميع الشعوب تجثو وتركع منذ الآن وحكمك سيكون خالداً يا ابن داود!»

فتقهقر رئيس محمية الجليل مرتداً إلى الوراء لأن وجود ابن لداود يعتبر تحقيراً له وتهديداً.

هذا، وإن لوكانان طعن في انتيباس وقدح في ملكه قائلاً له:

ـ «لا ملك إلا الملك الأبدي!»

كما ذم رياضه وتماثيله وأثاثه العاجي كما هي الحال بالنسبة الى الزنديق أشعب!»

قص أنتيباس شريط الختم المعلق في صدره وقذف به إلى الحفرة مصدراً أوامره إلى الصوت بأن يكف عن الكلام. فأجابه ذلك الصوت:

ـ «سأصرخ كالدب وكالحمار البري، وكالمرأة التي تضع وليدها!»

«إن عقابك هو في ما أتيته من زنى بزواجك من امرأة اخيك! لقد ابتلاك الله بعقم كعقم البغال!»

وارتفعت الضحكات كأصوات أمواج متلاطمة. وأصر فيتيليوس على البقاء حيث هو. كان المترجم يعيد باللغة

الرومانية وبنبرة باردة، كل الشتائم التي كان يدوي بها صوت لوكانان بلغته.

واضطر أنتيباس وهيروديا إلى أن يتلقيا هذه الشتائم مرتين. وكان هو يلهث بينما هيروديا تنظر فاغرة فاها من الدهشة إلى قعر البئر.

وقلب الشخص المخيف رأسه، وأمسك بقبضتيه القضبان الحديدية المشبكة وألصق وجهه عليها، فبدا كتلة من العوسج، وبدت عيناه كجمرتين تضيئان المكان. وصاح قائلاً:

ـ «آه! هذه أنتِ ياليزابيل، لقد أخذت قلبه بصرير حذائك كنت كالفرس تصهلين، وعلى الجبال أقمت مخدعك كي تقومي بتضحياتك وتبذيلها!»

«الرب سينزع عن أذنيك أقراطهما، ويعريك من معاطفك الأرجوانية ومن نقابك وبراقعك الكتانية، وسيجرد يديك من خواتمها وقدميك من اطواقهما وسينزع الاهلة الذهبية الصغيرة المتأرجحة فوق جبينك. سينزع منك مراياك الفضية ومروحاتك المصنوعة من ريش النعام، وأخفافك القماشية المزدانة باللؤلؤ والتي تزداد بها قامتك ارتفاعاً.

سينزع عنك زهوك بجواهرك الماسية، ورائحة شعرك وطلاء أظافرك، وبقية زخارفك الداعية الى التموع. وإن الحجارة لن تكون لرجم الزانية!»

فبحثت بنظرها عن شيء ما حولها تدافع به عن نفسها.

وأخفض الفريسيون بخبث عيونهم، وأدار الصدوقيون رؤوسهم مخافة أن يسيئوا الى الوالي أو يهينوه. وبدا على أنتيباس كأنه مدنف مشرف على الموت.

وإزداد الصوت ضخامة، وصار ينتقل منتشراً إلى أماكن أخرى كأنه الرعد المدوي، وصار الجبل يردد صداه فيصعق حصن ماخيروس بقصفات متكررة متعاقبة. وردد الصوت أيضاً:

« تمددي على الغبار يا بنت بابل، إطحني الدقيق، وانزعي حزامك، وأخلعي نعليك من قدميك! واكشفي عن ساقيك، واعبري الأنهار! فإن عارك سيكشف وخزيك سيطلع عليه الخلق، وسيحطم نحيبك أسنانك! وإن الخالق ليمقت نتن جرائمك!

« أيتها اللعينة! أيتها اللعينة! موتي مثلما تنفق الكلبة! »

وأغلق الباب القلاب، وارتد الغطاء. كان مناعي يود لو يخنق لوكانان.

وتوارت هيروديا عن الأنظار. أما الفريسيون فقد أصيبوا بالصدمة من هذا الكلام.

وأخذ أنتيباس القابع في وسطهم يدافع عن نفسه ويبرر مواقفه. فقال أليعازر:

- « ربما يجب أن يتزوج المرء امرأة أخيه، ولكن هيروديا لم

تكن أرملة، وفضلاً عن ذلك كـان لها طفـل، وهنا مكمن الشر».

فاعترض الصدوقي جوناتاس على هذا الكلام قائلاً:

ـ «خطأ! خطأ! القانون يدين مثل هذا الزواج من غير أن يحرمه تحريماً قاطعاً».

ـ «ذلك ليس بمهم! فإنهم يجورون عليّ ويظلمونني غاية الظلم! لقد ضاجع بشالوم زوجات أبيه، وضاجع جـودا كنته، وعامون أخته، ولوط بناته».

وظهر في هذه اللحظة أولوس مرة أخرى، وكان قد نام منذ وقت قصير. فعندما أعلم بالأمر وافق على كلام أنتيباس، وقال إنه لم يكن من الواجب الالتفات الى مثل هذه الحماقات.

وضحك طويلاً من تأنيب الكهنة ومن هياج لوكانـان. فارتدت هيروديا التي كانت تقف وسط مدخل القصر نحوه وقالت له:

ـ «إنك مخطىء في ما تقول يا مولاي! فإن لوكانان يأمر الشعب بأن يرفض دفع الضرائب».

فأجاب مأمور الضرائب على الفور قائلاً:

ـ «صحيح؟»

وكانت الاجابات كلها تؤكد صحة ذلك بشكل عام. أكد ذلك ايضاً رئيس محمية الجليل أنتيباس.

وخطر لفيتيليوس أن السجين يمكنه الفرار. وحيث إن تصرف أنتيباس قد بدا له مريباً، فقد أقام الحراسة على الأبواب على امتداد أسوار القصر وفي باحته. ثم ذهب الى جناحه الخاص في القصر ترافقه وفود الكهنة.

وشكا له كل وفد مظالمه، من غير أن يتطرقوا الى موضوع الذبائح. ولقد أزعجوه بالحاحهم فصرفهم جميعاً.

وبينما كان جوناتاس يغادر جناح الوالي، شاهد في إحدى فتحات الحصن المخصصة للنبال، أنتيباس يتحدث الى رجل طويل شعره، يرتدي معطفاً أبيض، رجل أشوني، فتأسف من كونه قد دعمه في يوم من الأيام.

ولكن إحدى الملاحظات حملت الى رئيس محمية الجليل العزاء، وهي أن لوكانان لم يعد له علاقة مباشرة به، وأن الرومان هم الذين سيتولون أمره. فيا للفرج! وأخذ فانويل عندئذ يتجول على طريق الحراس، فناداه أنتيباس وقال له مشيراً الى الجنود:

- «إنهم هم الأقوى، لا أستطيع إنقاذه! ولست مسؤولاً عن ذلك!»

وكانت باحة القصر خالية من الناس، والعبيد يأخذون قسطهم من الراحة. وانفصلت الأشياء الأقل عمودية، في حمرة السماء التي تشعل الأفق بنارها، انفصلت موشحة بالسواد.

فتمكن انتيباس من رؤية الملاحات على الجهة الأخـرى من البحر الميت. ولم يعد يرى مضارب العرب، فمن المحتمل أنهم قد رحلوا.

وكان القمر يشرق بنوره الوادع، فوقع ذلك في قلبه برداً وسلاماً.

وظل فانويل مطأطئاً رأسه، تلامس ذقنه صدره لفرط ما أصابه من الذل. ثم كشف عما لديه من أشياء يقولها وينبىء بها.

فمنذ بداية الشهر كان يراقب السماء قبل أن يتنفس الفجر ويسفر النهار، ذلك بأن مجموعة نجوم « بيرسية » توجد في السمت. ومجموعة « أغالا » كانت لا تكاد تظهر. أما مجموعة « رأس الغول » فهي أقل المجموعات لمعاناً وتألقاً. واختفت المجموعة « ميرا كوتي ». ومن هنا فقد تنبأ فانويل بموت رجل ذي قدر واعتبار، في تلك الليلة، وفي حصن ماخيروس.

فأي من الرجال العظام سيلقى حتفه؟ أما فيتيليوس فقد كان محاطاً بالحفظ والصون. وربما لا يعدم لوكانان. ففكر رئيس محمية الجليل وقال في نفسه:

ـ « الرجل الذي سيموت هو أنا ».

فلربما عاد العرب بعد ارتحال، ولربما يكتشف الوالي علاقاته مع البارثيين.

كان قتلة مأجورون من مدينة القدس يحرسون الكهنة، وكانوا يخفون الخناجرتحت ثيابهم. وما كان أنتيباس ليشك لحظة في علم فانويل الفلكي.

وخطر له أن يلجأ الى هيروديا برغم أنه كان يكرهها لكنها ربما تشجعه وتنهض من معنوياته، علماً بأنه لم يقطع كل علاقات السحر الذي كانت تمارسه عليه.

حين دخل الى غرفتها كان الدخان يتصاعد من الكافور على حوض رخام سماقي اللون، في وسطه نافورة ماء. وقد رشت المساحيق والدهون والمواد الشبيهة بالضباب، كذلك نثرت وشياً أخف من الريش.

ولم يذكر رئيس محمية الجليل عن نبوءة فانويل، ولا عن خوفه من اليهود والعرب، شيئاً أمام هيروديا لئلا تتهمه هذه بالجبن. وهكذا، فإن أنتيباس لم يتحدث معها إلا عن الرومان. ولم يكن فيتيليوس قد أفضى اليه بشيء عن مخططاته العسكرية. فلقد كان يفترض فيتيليوس أن أنتيباس هو صديق لكايوس الذي كان يتردد عليه أغريبا، وكان يفترض كذلك أنه ربما يرسلونه الى المنفى أو أنه سيذبح ذبح النعاج.

وحاولت هيروديا أن تطمئن أنتيباس ما استطاعت، مظهرة تجاهه التساهل والحلم اللذين لايخلوان من الازدراء. وفي نهاية الأمر أخرجت من علبة صغيرة نوطاً غريباً يحمل صورة جانبية

للقيصر. وذلك ما كان كافياً لدحض كل الاتهامات.

سألها أنتيباس عن كيفية حصولها على هذا النوط، وفي أعماقه مشاعر الشكر لها والامتنان، فأجابته:

ـ « أهدي إليّ! »

وظهر أحد السواعد العارية تحت إحدى الستائر المقابلة، ساعد فتى شاب يتفجر جمالاً وسحراً حتى لكأن النحات اليوناني بوليكليطس قد نحته من العاج فأحسن نحته.

كان ذلك الساعد يجذف في الهواء بطريقة لا تخلو من التكلف والارتباك، بيد أنها حركة جميلة قام بها ذلك الفتى ليتناول قميصاً وضع على مرقاة كان قد نسيه عليها. وكانت المرقاة موضوعة أمام السور، فأبعدت امرأة عجوز الستار وناولته إياه متمهلة متباطئة.

وخطرت في ذهن أنتيباس ذكرى لم يستطع تحديدها، وسأل هيروديا:

ـ « هل هذه العبدة لك؟ » فأجابته:

ـ « وما همك؟ »

٣

كانت قاعة الولائم تغص بالمدعوين، فهي تحتوي على ثلاثة أجنحة تشبه مبنى رومانياً مستطيلاً، في أحد طرفيه جزء نصف دائري ناتىء بارز، ويفصل ما بين تلك الأجنحة أعمدة من خشب الألغوميم وتعلوها تيجان من معدن البرونز محفورة عليها كتابات وزخارف.

تقوم على هذه الأعمدة مقصورتان لهما فرجات، بينما تقوم مقصورة ثالثة في جوفها تحدب، تقوم منتصبة قبالة عقد ضخم ينفتح على الطرف الآخر. هذه المقصورة تحتوي على زخارف مؤلفة من خيوط الذهب المفتولة المجدولة. بينما الشمعدانات الكبرى المشتعلة وضعت على صف من الطاولات يمتد على طول البارجة الحربية.

هذه الشمعدانات كانت تؤلف غابات من الأنوار والأضواء، بين الكؤوس الفخارية المطلية، والأطباق النحاسية، وبين مكعبات الثلج واكوام العنب.

لكن هذه الأنوار الحمراء الساطعة ما لبثت أن أخذت تشح قليلاً قليلاً بسبب من ارتفاع السقف. وكانت نقاط من النور تلمع ليلاً كالنجوم عبر غصون الأشجار.

ومن فتحة الخليج الكبير كانت ترى مشاعل مضيئة على

سقوف المنازل لأن أنتيباس كان يحتفل بالعيد مع أصدقائه وشعبه وكل من وفد الى القصر لإحياء ذكرى عيد ميلاده.

ويدور العبيد المفعمون خفة ورشاقة كرشاقة الكلاب وخفتهم، يدورون طوافين على جمهور الحاضرين، حاملين الأطباق بأيديهم وينتعلون مداسات صنعت من اللبد.

وكانت طاولة الوالي موضوعة في مكان منصة مصنوعة من خشب الجميز، تحت المنبر الذهبي، وقد فرشت تحتها البسط البابلية، فأصبحت تشبه سرادقاً من السرادقات.

وكان فيتيليوس يتكىء مع ابنه وأنتيباس على ثلاث أرائك من العاج، واحدة تقع مواجهة، والاثنتان الأخريان عن يمين وشمال. أما الوالي فمكانه بالقرب من الباب الى الجهة اليسرى وأما أولوس فالى اليمين، وأنتيباس في الوسط.

كان أنتيباس يرتدي معطفاً أسود ثقيلاً، اختفت حبكته ولم تعد العين ترى نسيجه من فرط ما وشي به من الزخارف. ووضع على وجنتيه أحمر الشفاه، وعلى شعره مسحوقاً أزرق، ذلك الشعر الذي ضمت خصلاته الى بعضها بواسطة تاج مرصع بالحجارة الكريمة، بينما لحيته مصففة بطريقة أصبحت بفضلها تشبه إحدى المروحات.

كان فيتيليوس يحتفظ بحمالة سيفه القرمزية التي تنسدل بشكل مائل على معطفه الكتاني الفضفاض.

وكان أولوس قد عقد كمي معطفه المصنوع من الحرير ذي اللون البنفسجي المفضض، ووضعهما على ظهره. وكانت ضفائر شعره طبقات بعضها فوق بعض، بينما طوق من الياقوت الأزرق يلتمع كالشرر المتطاير على صدره المكتنز الأبيض الذي يشبه صدر إحدى النساء.

وكان يجلس على حصيرة بالقرب منه غلام واضعاً ساقاً على ساق، هذا الغلام كان عظيم الوسامة، دائم الابتسام. وكان فيتيليوس قد رآه في المطابخ، فلم يعد يمكنه الاستغناء عن أن يتردد اليها.

وبسبب الصعوبة التي وجدها فيتيليوس في حفظ اسمه الكلداني، كان يدعوه فقط بلقب «الآسيوي». ومن وقت الى آخر، كان الغلام يضطجع على سرير في غرفة الطعام ذات الأسرة الثلاثة، فتبدو قدماه العاريتان أعلى مستوى ممن ينظر اليهما.

من تلك الجهة كان يجلس الكهنة وضباط أنتيباس، ونفر من سكان مدينة القدس ووجهاء المدن اليونانية. وكان يلي الوالي في مقاعدهم: مارسيلوس مع رجال الإدارة الماليين، وأصدقاء أنتيباس، وشخصيات من بلدة قانا، وتبلوماييد، وأريحا ثم خليط من الناس من كل جنس ولون من أبناء الجبل

اللبنانيين، الى جنود هيرودوس الطاعنين في السن. ثم يأتي اثنا عشر تراسياً، وواحد من الغاليين، واثنان من الألمان، وصائدو الغزلان، ورعاة من عـدومي، وسلطان تدمـر، وبحارة من أزيونغابر.

وكل واحد من هؤلاء كان أمامه كعكة من عجين الحلوى الرخوة لكي ينظف أصابعه. وكانت السواعد تمتـد كأعنـاق النسور فتتناول حبات من الزيتون والفستق واللوز.

كل الوجوه كانت تشع بنور الفرح وتستقر فوقها أكاليل الزهور. ولكن الفريسيين كانوا قد رفضوا وضع هذه الأكاليل بصفتها تقليداً رومانياً غير لائق.

وارتعشوا منتفضين عندما رشت هذه التيجان من الأزهار بمادة عطرية وبالبخور، وهما مخصصان لاستعمالهما في هيكل سليمان في القدس.

وفرك أولوس إبطه بالعطر، فوعده أنتيباس بحمولة كاملة من البخور وبثلاث ققف من هذا العطر الحقيقي الذي أغرى كليوباترا بفلسطين.

وكان قد جلس وراءه قائد حاميته في طبريا الذي جاء فجأة منذ وقت قصير كيما يتباحث معه بشأن أحداث غير عادية. ولكن انتباهه كان موزعاً بين الوالي وما يقال على الطاولات المجاورة.

كان الحديث يجري على هذه الطاولات عن لوكانان وأناس من طرازه. فسمعان الذي من جيتوعي كان يغسل الخطايا بالنار. وثمة شخص يدعى يسوع. . . فقال أليعازر:

ـ « إنه أسوأ من الجميع! يا له من مشعوذ سافل! »

فنهض رجل كان يجلس خلف أنتيباس، وقد امتقع وجهه فأصبح شاحباً مثل حاشية ثوبه القصير المعقودة ياقته. ثم نزل من على المنصة وقال سائلاً الفريسيين:

ـ « كذب وزور! يسوع يأتي بالمعجزات! »

كان أنتيباس يرغب في أن يرى بعضاً من هذه المعجزات، فقال للرجل:

ـ « كان عليك أن تصحبه الى هنا، هيا أخبرنا عن بعض هذه المعجزات! »

فقص عليه عندئذ إنه هو، يعقوب، كان عنده بنت مريضة، فذهب الى بلدة كفرناحوم لكي يتوسل الى المعلم ليشفيها من مرضها، فأجابه المعلم قائلاً: « عد الى بيتك، فإنها قد برئت! »

وذهب يعقوب الى منزله فوجد بنته واقفة على عتبة الباب وقد غادرت مخدعها عندما أشارت المزولة الشمسية الى الساعة الثالثة، أي اللحظة نفسها التي ذهب فيها يعقوب ووقف متوسلاً أمام يسوع. فاعترض الفريسيون قائلين:

- « لا شك أن هناك أساليب وأعشاباً قوية المفعول! حتى هنا في حصن ماخيروس يجد المرء احياناً نبتة البعراص[1] التي تعطي الانسان مناعة وحصانة ضد الأمراض. ولكن إبراء المريض دون رؤيته أو لمسه شيء مستحيل ما لم يكن يسوع يستخدم الشياطين في ذلك ».

وكرر أصدقاء أنتيباس ووجهاء الجليل ما قاله الفريسيون، فقالوا وهم يهزون رؤوسهم:

- « من المؤكد انهم الشياطين ».

وكان يعقوب الواقف بين طاولة هؤلاء وطاولة الكهنة يحتفظ بالصمت بلطف واستعلاء. فأشاروا اليه بوجوب ان يتكلم فقالوا له: - « هاتِ مبررات سلطانه ».

فتقوست كتفاه، وقال بصوت خفيض متمهل، وكأن به ذعراً من نفسه:

- « انتم لا تعلمون إذاً أنه المسيح؟ »

فنظر جميع الكهنة بعضهم الى البعض الآخر، وطلب فيتيليوس تفسيراً لكلمة « المسيح »، فانتظر مترجمه دقيقة قبل

---

(1) نبتة البعراص هي نبتة لبنانية نادرة الى حد كبير. وهي مشهورة، وهي موضع فخار واعتزاز بالنسبة للمشتغلين بالكيمياء القديمة، وكانت لا ترى نهاراً، بينما هي تضيء ليلاً وكانت تساعدهم في بحثهم عن تحويل المعادن الى ذهب.

أن يستجيب الى طلبه، ثم شرح له ان هؤلاء القوم يدعون بهذا المخلص الذي سيحررهم ويجعلهم يتمتعون بكل الخيرات ويسودون على كل الشعوب، حتى إن بعضم يصر على أنه يجب الاعتماد على إثنين وليس على واحد فقط، فالأول سيغلبه قوم ياجوج وماجوج[1] من جن الشمال؛ ولكن الثاني يأتي فيستأصل أمير الشر. ومنذ قرون ينتظرونه في كل دقيقة من دقائق الزمان.

وبينما تداول الكهنة في ما بينهم، تصدى أليعازر للحديث فقال:

- « أولا، المسيح هو ابن داود وليس ابن النجار. وهو يأتي ليؤكد الناموس. ولكن هذا الناصري يهاجم الناموس وينقضه ».

وأتى أليعازر بحجة أقوى من ذلك أيضاً، فقال إنه يجب أن يسبقه مجيء ايليا[2]. فرد عليه يعقوب قائلاً:

- « ولكن إيليا أتى! »

وردد الجمهور « إيليا! إيليا! » حتى بلغ هتافهم الجهة الأخرى من القاعة.

---

(١) هؤلاء القوم هم علامات تسبق ظهور المسيح الدجال إذا رجعنا الى رؤيا القديس يوحنا.

(٢) في القرن الخامس قبل الميلاد تنبأ نحمياس مجدد هيكل سليمان والشريعة الموسوية، بقيامة إيليا.

كان الجميع يرون بخيالهم عجوزاً يسير، وتحلق الغربان فوق رأسه،كما يبصرون صاعقة تضيء أحد المذابح، وأحباراً وثنيين يلقى بهم في الشلالات، والنساء على المنابر يفكرن في أرملة ساربتا[1].

ولم يتعب يعقوب من ترداد انه يعرف ذلك العجوز. فلقد رآه ورآه الشعب أيضاً! فقيل له:

ـ «وما اسمه؟» فأجابهم:

ـ «لوكانان!»

فانقلب أنتيباس على ظهره وكأنه طعن طعنة في الصميم.

وقفز الصدوقيون على يعقوب، فقام أليعازر فيهم خطيباً ليحملهم على سماعه والإصغاء اليه.

وعندما استتب الهدوء وساد الصمت، إرتدى أليعازر معطفه، وطرح بعض الأسئلة كأنه قاضٍ على منبر محكمته، فقال:

ـ «حيث إن النبي قد مات...»

وقاطعه الحضور، ذلك بانهم كانوا يؤمنون بأن إيليا اختفى. إختفى فقط وتوارى عن الأنظار. فاحتد واستشاط غضباً من اعتراض الجمهور عليه ومقاطعته إياه، وتابع موجهاً

---

(١) ساربتا هذا ساعده إيليا بمعجزات أتاها.

الحديث الى يعقوب:

- « أتعتقد أنه بعث من قبره؟ » فقال يعقوب:

- « ولم لا؟ »

فهز الصدوقيون مناكبهم، وبذل جوناطاس جهداً ليضحك كالمهرج بينما جحظت عيناه الصغيرتان. ما من غباء يفوق غباء طموح الجسد الى الحياة الأبدية. وأنشد للوالي هذا البيت الذي قاله شاعر معاصر:

« الجسم بغير النفس لا ينمو، وبشكل ظاهر بعد الموت لا يبقى ».

ولكن أولوس كان منحنياً على حافة إحدى الأرائك، وقد تصبب العرق من جبينه، واخضر وجهه، بينما وضع كلتا قبضتيه على معدته وتظاهر الصدوقيون بأنهم تأثروا كثيراً.

وفي اليوم التالي أعيد الى الصدوقيين حق تقديم الذبائح والقرابين. وأبدى أنتيباس يأساً، بينما ظل فيتيليوس محافظاً على برودة أعصابه وعدم اكتراثه لما يجري من حوله. إلا أن قلقه كان عظيماً. فهو مهدد بفقدان ثروته بعد ابنه.

وما كاد أولوس يفرغ من التقيؤ حتى أراد أن يعاود الأكل. قال:

- « هاتوا لي برادة الرخام، وحجر ناكسوس، وهاتوا لي شيئاً من مياه البحر، وأي شيء آخر. آه لو أستحم! »

قال هذا وأخذ يقضم قطعاً من الثلج. ثم تردد بين إناء خزفي من صنع بلدة كوماجين الواقعة بين كيلكيا ونهر الفرات، وكان هذا الإناء يحوي لحماً، وبين شحارير وردية اللون. واستقر رأيه على أن يأكل الكوسى بالعسل.

وكان الفتى الاسيوي يحدجه بنظرات فاحصة متأملة، ذلك أن هذه القدرة على التهام الطعام تنم عن كائن عجيب وعرق متميز سام.

وضع الطباخون على مائدة الطعام كلى ثيران، وجرذاناً سنجابية، ولحم حسون، كما قدموا أوارق العنب المحشوة باللحم المفروم.

كل هذا، والكهنة يدور النقاش بينهم حول البعث والنشور.

وحكم عمونيوس تلميذ فيلون الأفلاطوني المذهب[1] حكم بأن هؤلاء الكهنة أغبياء، وصرح بهذا الرأي الى أناس يونانيين يسخرون من وسطاء الوحي.

والتقى مرسيلوس بيعقوب، فروى الأول للثاني مقدار

---

(١) فيلون هو ممثل اليهودية الاسكندرية خير تمثيل، وهو الذي وفق بين الفكر اليوناني والتقاليد العبرية، وهو ملهم الأفلاطونية الحديثة.

السعادة التي شعر بها في ظل معمودية الشمس. وناشده يعقوب اتباع المسيح.

وإن نبيذ التمر والأثل، ونبيذ صفد وجبيل، كل هذه الأصناف من النبيذ كانت تسيل من آنية ذات عروتين فتصب في أخرى لتمتزج فيها بالماء، وتسيل منها الى الكؤوس، ومن هذه الى حلقوم كل معاقر لها من المحتفلين.

كان الجميع يتحدثون ويسمرون، والقلوب تفصح عن مكنوناتها بحرية وانطلاق.

وبرغم أن لاسيم يهودي، لم يعد يخفي عبداته للكواكب . وأذهل تاجر من أفقا جماعة من البدو هناك، وهو يسرد لهم بالتفصيل روائع هيكل هيرابوليس، فسألوا عما يكلفهم الحج اليه. كما أن آخرين كانوا حريصين على ألا يتركوا دينهم الذي ولدوا عليه. وكان رجل ألماني يكاد أن يكون كفيفاً، ينشد نشيداً يحيي به ذلك الأنف من الجيل الداخل في البحر، والواقع في اسكنديناڤيا، ذلك الأنف الذي كانت تظهر فيه الآلهة بوجوهها التي تنبعث منها أشعة كأشعة الشمس. وكان أيضاً في ذلك الاحتفال قوم من بلدة شكيم لم يأكلوا الترغل مراعاة لليمامة « عزيما ».

وكثير من المحتفلين كانوا يتبادلون الأحاديث وهم واقفون وسط القاعة، بينما تصاعدت أنفاس الحاضرين مصحوبة

بدخان المصابيح الكبيرة فتشكل الضباب في فضاء القاعة.

وسار فانويل على امتداد الأسوار، وكان قد انتهى قبيل ذلك من مراقبة النجوم في سمائها وأفلاكها، غير أنه لم يتقدم صوب أنتيباس خشية أن يتلطخ ببقع الزيت التي تعتبر رجساً عظيماً بالنسبة للآشونيين.

وقرع باب القصر قرعاً عنيفاً دوت أصداؤه في الداخل.

لقد كان الجميع يعرفون أن لوكانان قد احتجز فيه. وتسلق الممر رجال يحملون المصابيح. وازدحم الوادي بقوم ظهروا كالكتلة السوداء، وهم يصيحون من حين الى حين ويهتفون قائلين:

« لوكانان! لوكانان! »

فقال جوناطاس:

ـ « إنه يفسد علينا كل شيء! »

وقال الفريسيون: ـ « إذا استمر فلن يبقى لنا شيء من المال! »

وانطلقت الاحتجاجات والانتقادات. فكنت تسمع:

ـ «إحمنا!»

ـ « فلننته من ذلك! »

ـ « إنك زنديق مثل كل آل هيرودوس! »

فأجاب أنتيباس على تلك الاتهامات بقوله:

ـ « أنا أقل منكم زندقة ومروقاً! وإن أبي هو الذي شيد معبدكم! »

فاتهم آنئذٍ الفريسيون وأبناء المنفيين، وأتباع ناتاتياس، إتهم هؤلاء جميعاً أنتيباس بالجرائم التي اقترفتها عائلته.

كانت رؤوس هؤلاء القوم مسننة ولحاهم منتفشة شائكة، وأيديهم مستدقة ولكنها مؤذية: أما وجوههم فمفلطحة، وأما عيونهم فضخمة مستديرة، وملامحهم تقرأ فيها الشراسة والبأس.

واندفع نحو المنصة اثنا عشر شخصاً ما بين كاتب وخادم للكهنة، وقد رضعوا لبان القرابين والأضاحي، وأخذوا يهددون أنتيباس الذي كان يقف في الجماهير خطيباً واعظاً، يهددونه بالمدي، بينما وقف الصدوقيون موقف الدفاع عنه بشكل مائع.

وبصر أنتيباس بمناعي فأشار اليه بالانصراف، بينما أشار فيتيليوس، وهو رابط الجأش الى أن تلك الأمور لا تعنيه من قريب أو بعيد.

وكان الفريسيون الذين لزموا أماكنهم في حالة من الهياج المجنون، فحطموا الأطباق أمامهم. وقدمت اليهم اليخنة التي يحبون، ولحم حمر برية، ولحماً قذراً تتقزز منه النفوس وتنفر الأذواق السليمة. وسخر أولوس منهم لأنهم يكرمون رأس الحمار ويحيطونه بالاجلال أكثر من اللازم كما يقال. وسخر

من كونهم ينفرون من الخنزير. وما مرد ذلك النفور على الأرجح إلا الى أن هذا الحيوان الضخم قتل آلهتهم باخوس.

وكانوا يحبون النبيذ أكثر من اللازم، فقد اكتشفت كرمة ذهبية في هيكل سليمان.

ولم يفهم الكهنة ما قاله أولوس. ورفض فينيه، الذي أصله من الجليل، أن يترجم له أقواله، فغضب منه أولوس غضباً لا حدود له، خصوصاً أن الفتى الآسيوي كان قد توارى عن الأنظار. كما أن الوليمة لم تكن تعجبه لأن ما قدم فيها من المآكل مبتذل وغير مغلق بما فيه الكفاية. ولقد هدأ أولوس عندما رأى أذناب نعاج سورية على صفائح من السمن.

بدت طباع اليهود في عين أولوس فيتيليوس كريهة مقيتة. وإن إلههم على أغلب الظن هو مولوخ الذي وجدت له مذابح متعددة على الطريق.

وعادت الى خاطره ذكريات القرابين التي كان يقدم الأطفال فيها كأضحيات بشرية. كما عاودته قصة الرجل الذي كان اليهود يسمنونه سراً. ولقد أصيب بالغثيان، وهو اللاتيني، من فرط ما انتابه وشعر به من القرف بسبب قسوتهم وعدم تسامحهم، وبسبب سعارهم الديني، وعنادهم الأحمق.

وأراد الوالي ان ينصرف فرفض اولوس. كان الوالي يرقد،

بمعطفه المنسدل حتى خاصرته، وراء ركام من المؤن الغذائية ورغم عدم حاجته اليها لوجود الكثير من المؤن الغذائية عنده، كان يصر على الا يتركها.

وتعاظمت حماسة الشعب، فأطلقوا العنان لتفكيرهم يعملونه في مشاريع استقلالية.

كانوا يستعيدون ذكريات مجد بني إسرائيل. جميع الغزاة الفاتحين من مثل أنتيغون وكراسوس وفاروس لم يفلتوا من العقاب.

وقال الوالي:

ـ «أيها الحقيرون!». ذلك بأن الوالي كان يفهم اللغة السريانية، وأن مترجمه لم يكن يصلح إلا للإفساح في المجال له حتى يجيب.

وبسرعة فائقة سحب أنتيباس نوط الأمبراطور وعرضه من جهة الصورة، صورة القيصر، وهو يتأملها بخوف وارتعاش.

وفتح ستار المنبر الذهبي فجأة لتظهر من خلفه هيروديا على أنوار الشموع الساطعة، بين عبيدها وأكاليل الزهور المشكوكة بشقائق النعمان. وظهر على رأسها تاج أشوري ثبت على جبهتها بعصابة وضعت على ذقنها. وكان شعرها بضفائره اللولبية ينفلش على مشمال قرمزي متصل بعاتقها، وقد شق بطول كميه.

ومن فوق الدربزين القائم فوق أنتيباس صاحت هيروديا:

ـ « العمر الطويل لقيصر! »

وردد هذا الهتاف المعبر عن الولاء لقيصر، ردده فيتيليوس وأنتيباس والكهنة.

ولكنه سمع في أقصى القاعة دوي يعبر عن الشعور بالذهول والاعجاب، فلقد دخلت قبل هنيهة فتاة في ميعة الصبا وريعان الشباب، وكان بإمكان المرء أن يرى بوضوح تحت حجابها الضارب الى الزرقة والذي يغطي منها الصدر والرأس، كان بإمكانه أن يرى قوسي عينيها، وحجري اليمان المتدليين من أذنيها، وبياض بشرتها. وكان يغطي عاتقها ويستقر على خاصرتها مربع من قماش حريري بواسطة نطاق من المجوهرات. وكان منثوراً على ردائها الأسود شيء من نبات اللفاح، بينما خفاها المصنوعان من ريش الطنان يحدثان قضقضة وهي تختال بهما متبخترة وتسير متمهلة في تيه وخيلاء.

وأزاحت النقاب عن رأسها وصدرها أثناء ارتقائها المنصة لتنتصب فوقها، فبدت كأنها هيروديا، هيروديا كما كانت قديماً، إبان صباها. ثم أخذت ترقص.

وفي أثناء رقصها كانت قدماها تأتي الواحدة منهما بجانب الأخرى على إيقاع أنغام الناي وزوج من الصنوج. وكانت

تدعو أحد الحاضرين بإشارة من ساعديها المفتونين، لكنه يتهرب منها دائماً فلا يستجيب لها. وتلاحقه الصبية بخفة ورشاقة أين منهما خفة الفراشة ورشاقتها! تلاحقه كمثل عقل شغوف باستكشاف ما يجهل، ومثل نفس شاردة تائهة. تفعل هذا وتبدو على استعداد لتحلق في الفضاء.

وحلت محل زوج الصنوج ناي فينيقية بأنغامها الشحيحة. وتبع الأمل والرجاء الهم والعناء، فأصبحت الراقصة تتنهد وتتحسر، وبدا جسمها بأسره في خمود وهمود بلغا درجة لم يعد يعلم المرء معها ما إذا كانت تبكي أحد الآلهة أو أنها تبالغ في تملقها.

كانت تلوي خاصرتها وتهز بطنها وفق حركات كأنها أمواج في بحر هائج صاخب. كما كانت تهز نهديها، بينما بقي وجهها جامداً، أما قدماها فلا تتوقفان عن الحركة. وقد شبهها فيتيليوس بالممثل الأيمائي الصامت منستر. وكان أولوس لا يزال يتقيأ. ويسرح أنتيباس في حلم من أحلامه اليقظة، فلا يعود يفكر في هيروديا. فلقد اعتقد أنه رآها قرب الصدوقيين. وابتعدت الرؤيا.

لم تكن تلك في الحقيقة رؤيا رآها أنتيباس. كانت هيروديا قد ربت ابنتها سالوميه بعيداً عن حصن ماخيروس وكانت

تعرف أن رئيس محمية الجليل أنتيباس قد يحب ابنتها وكانت هذه الفكرة جيدة وأنها الآن متأكدة منها!

ثم، كانت انطلاقة الحب الذي يريد أن يشبع. رقصت سالوميه مثلما ترقص الكاهنات الوثنيات في بلاد الهند، أو كالفتيات النوبيات القاطنات عند الشلالات، أو كما ترقص الفتيات المتهتكات من بنات ليديا. وكانت في رقصها ترد جسمها الى الوراء ورأسها، وتتقلب في جميع الاتجاهات كأنها زهرة استخفتها العاصفة فحركتها حيث شاءت أن تحركها. والأقراط اللامعة في أذنيها تقفز فوقها، بينما قطعة القماش التي تغطي ظهرها تتموج في لمعانها. كما كانت تنقدح من ذراعيها وقدميها وثيابها شرارات لا تراها العين، فتسعر النيران الحامية في قلوب الرجال.

وتصاعدت أنغام القيثارة فقابلها الحاضرون من هذا الجم الغفير من الناس، قابلوها بالهتاف تلو الهتاف إيذاناً باستحسانهم وطربهم لسماعها.

وأبعدت الراقصة ساقيها عن بعضهما وانحنت من غير أن تثني ركبتيها. بلغ بها الانحناء حداً جعل ذقنها تلامس الأرض. أما أهل البادية الذين اعتادوا الزهد وحرمان النفس، وجنود روما الخبراء في التقصف والإفراط، والمسؤولون الماليون البخلاء، والكهنة الشيوخ الذين وترت الخصومات أعصابهم

وأحدت طباعهم، كل أولئك كانت قلوبهم تخفق، وجوانحهم تصفق شهوة وشعوراً بالمتعة الجنسية.

ثم دارت سالوميه حول طاولة أنتيباس، وأخذت تهز جسمها بشكل جنوني كخذروف الرقاة والسحرة الذي يحدث تأثيرات مغناطيسية في نفس الانسان.

وقال لها أنتيباس بصوت تقطعه زفرات الشهوة الجامحة:

- « تعالي! تعالي! »

ولكنها ظلت تدور وتدور، بينها آلات الطرب تعزف حتى تكاد أن تنفجر.

ويدوي صوت جمهور الحاضرين رضى واستحساناً. ولكن رئيس محمية الجليل كان يصرخ بصوت أكثر من أصواتهم قائلاً لسالوميه:

- « تعالي! تعالي! ستكون كفرناحوم ملكاً لك، كذلك سهل طبريا وحصوني ونصف مملكتي! »

وألقت سالوميه بنفسها على الأرض مستندة الى كفيها، بينها إرتفعت قدماها في الهواء، وطافت بالمنصة على هذا النحو وكأنها جعل من الجعلان. وتوقفت فجأة عن الرقص.

كانت رقبتها تشكل زاوية قائمة مع عمودها الفقري، بينها ثيابها الملونة تغطي ساقيها وتعلو الى ما فوق كتفيها مثل قوس قزح، فتتبع وجهها الى مسافة ذراع واحدة من الأرض.

كان أحمر الشفاه يغطي شفتيها، أما حاجباها فشديدا السواد، وعيناها تكادان تكونان رهيبتين، بينما قطرات العرق فوق جبينها تبدو كأنها بخار يتصاعد على رخام أبيض.

لم تلفظ كلمة. راحا يتبادلان النظر.

وضج المنبر باصطفاق من الأصابع، فصعدت اليه سالوميه، وظهرت مرة أخرى وقد علت سحنتها ملامح الأطفال. قالت وهي تزأزىء قليلاً موجهة الخطاب الى رئيس محمية الجليل:

ـ « أريد أن تقوم لي على طبق رأس. . . . ». ونسيت اسم صاحب ذلك الرأس، ولكنها استأنفت كلامها مبتسمة:

ـ « رأس لوكانان! »

فانهار أنتيباس. لقد أُفحم فهو قد أعطى سالوميه كلمته.

كان الشعب ينتظر نتيجة موقف كهذا. ولكن نبوءة الموت لأنتيباس لربما تبتعد عنه فينجو منها بانطباقها على لوكانان! فإذا كان لوكانان في حقيقة الأمر هو إيليا فإنه سيتمكن من الإفلات من الموت، وإذا لم يكن هو فإن قتله لا يعود من الأهمية في شيء.

وكان مناعي الجلاد في جانب أنتيباس، ففهم مقصده وما يرمي اليه.

ودعاه فيتيليوس اليه ليعطيه كلمة السر، إذ الحراس يحرسون الحفرة التي يقبع فيها لوكانان.

وانفرج الوضع برمته. فإن كل شيء سينتهي بعد دقيقة واحدة من الزمان. غير أن مناعي لم يتصرف بالسرعة المرجوة. لقد عاد ولكن القلق والتشوش الذهني كانا باديين عليه.

فمنذ أربعين عاماً ومناعي يمارس وظيفة جلاد، فهو الذي أغرق أرسطوبولس، وخنق الإسكندر، وأحرق ماتاتياس حياً، وهو الذي ضرب أعناق زوزيم وبابوس ويوسف وأنتيباتير، إلا أنه لم يكن ليجرؤ على قتل لوكانان!

كانت أسنانه تصطك، وترتعد أعضاء جسمه ارتعاداً. فلقد رأى أمام الحفرة التي يقبع فيها لوكانان، رأى ملاك السامريين الأكبر تغطية العيون تماماً، وقد شهر سيفاً عظيًما أحمر مسنناً كشعلة من نار. ويمكن أن يشهد بذلك إثناء من الجنود كانا معه.

وقال هذان انهما لم يريا شيئاً باستثناء قائد يهودي انقض عليهما واختفى.

وصبت سالوميه جام غضبها وثورتها، وانطلق لسانها بسيل من الشتائم السوقية الجارحة، وحطمت أظفارها على قضبان نافذة المنبر، ثم بدا كأن الأسدين المحفورين على الصخر يعضان كتفيها ويزمجران مثلها. واقتدى أنتيباس بها ففعل ما فعلت، كذلك فعل الكهنة والجنود والفريسيون، كلهم يطالبون

بالثأر، بينما يشعر الآخرون بالسخط والنقمة لأن مزاجهم قد تكدر، ولأن ملذاتهم ومتعهم تأخرت قليلاً بسبب اللغط والصياح. وخرج مناعي مخفياً وجهه. ووجد الحاضرون أن الوقت هذه المرة أطول منه في المرة السابقة. ودب الملل في نفوسهم.

وفجأة سُمع وقع خطى في ممرات القاعة، وأصبح الضيق لدى الحاضرين، وما يشعرون به من انزعاج نفسي وتعكر مزاج، أصبح ذلك كله لا يحتمل.

ودخل الرأس. كان مناعي يحمله ممسكاً به من شعره بأطراف أصابعه، وهو ممتلىء تيهاً وفخاراً لما استقبل به من تصفيق الجمهور.

وقدم مناعي الرأس الى سالوميه بعدما وضعه على طبق.

وصعدت هذه المنصة برشاقة.

بعد دقائق حملت ذلك الرأس المرأة العجوز التي كان انتيباس قد شاهدها صباحاً على سطح احد البيوت، والتي كان يراها احيانا في غرفة هيروديا.

وتراجع أنتيباس الى الوراء حتى لا يرى الرأس بينما ألقى عليه فيتيليوس نظرة تنطق باللامبالاة.

ونزل مناعي عن المنصة وعرض على القادة الرومان رأس لوكانان المقطوع، ومن ثم عرضه على سائر من كانوا يجلسون

بجانبهم ويتناولون الطعام. فألقوا عليه جميعاً نظراتهم الفاحصة المدققة. فالنصل الذرب المحدد لآلة القتل التي قطعت رأس لوكانان قد خرق أحد فكيه. فزاويتا فمه تختلجان. وتجمدت بعض من بقع الدم المنثور على لحيته. وأصبح لون جفنيه باهتاً كقشور البيض الصفراء، بينما ترسل المصابيح الضخمة أنوارها مضيئة القاعة. ووصل الرأس الى طاولة الكهنة، فقلبه أحد الفريسيين حباً منه بالاطلاع. ووضعه مناعي أمام أولوس بعدما أمسكه بشكل عمودي فاستيقظ أولوس من النوم.

ثم ظهر كأن حدقتي أولوس الخامدتين وحدقتي لوكانان اللتين انطفأت فيهما أنوار الحياة تتبادلان شيئاً من الأشياء.

ثم قدم مناعي الرأس الى أنتيباس، فسال الدمع على وجنتيه.

وأخذت المشاعل تنطفىء، وانصرف المدعوون، فلم يبق في القاعة سوى أنتيباس الذي وضع يديه على صدغيه لا يني ينظر الى الرأس المقطوع، بينما يتمتم فانويل بالصلاة والدعاء باسطاً كف الضراعة، وهو يقف وسط جناح القصر الكبير.

وفي اللحظة التي كانت تشرق فيها الشمس، جاء رجلان فجأة كان لوكانان قد أرسلهما آنفاً، جاءا بالجواب الذي طالما انتظره الناس، فسلماه الى فانويل الذي دبت فيه الحمية إثر قراءته له. ثم دلهما على الرأس الموجود على الطبق بين فضلات

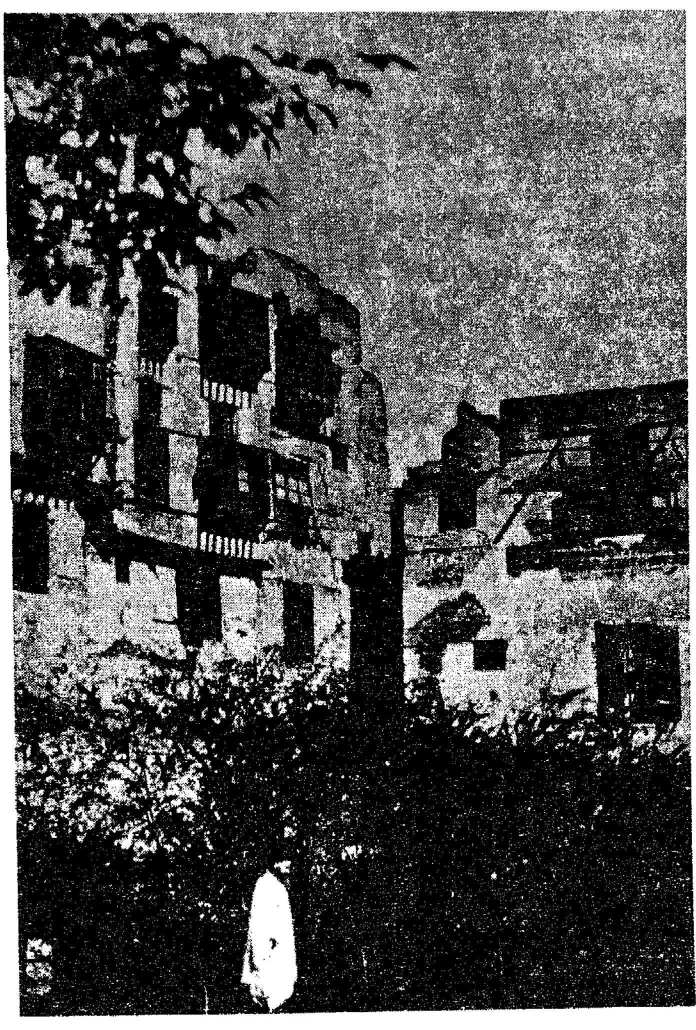
الوليمة. فقال له أحدهما:

« هون عليك يا فانويل، فإنه هبط الى الأموات يبشرهم بالمسيح! »

وفهم الرجل الأشوني عندئذ مغزى هذه العبارة:

- « لكي يزداد هو، يجب أن أنقص أنا ».

وانصرف الثلاثة شطر منطقة الجليل، آخذين معهم رأس لوكانان. وحيث انه كان بالغ الثقل، فقد تعاقب الثلاثة على حمله.



فلوبير في القاهرة

الملف



مشهد من كرواسيه (١٨٤٠) حيث كان يتردّد فلوبير في صباه

حياة غوستاف فلوبير

١٨٢١ . ١٢ كانون الأول . مولد غوستاف فلوبير في روّان .

١٨٣٢ . دخل ، في شباط ، الصف الثامن في « المعهد الملكي » في روّان حيث تابع دروساً عادية .

١٨٣٤ . ١٨٣٧ . كتابات مدرسية وخارج نطاق الدراسة لوحظ ، في ما بعد ، أنها كانت بدايات أدبية مبكّرة .

١٨٣٦ . صيفاً : لقاؤه في تروفيل للسيّدة شليسنجر التي ظلت حبه الكبير طوال حياته : شخصية السيّدة أرنو في « التربية العاطفية » تمثل العاطفة التي كنّها فلوبير لها .

١٨٣٧ . بدايات نشره في جريدة أدبية في روّان .

١٨٣٨ . ١٨٣٩ . كتابة « مذكّرات مجنون » و « سْمار » .

١٨٤٠ . صيفاً : إذ قُبل حائز بكالوريا في الآداب فور انتهائه من صف الفلسفة ، سافر في البيرينيه وكورسكا .

١٨٤١ - ١٨٤٣ . عاش في روّان وفي باريس ، درس الحقوق في باريس بقليل حب وقليل اجتهاد ، كتب « تشرين الثاني » (أنهاه في ٢٥ تشرين الأول ١٨٤٢) ، يباشر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما نسمّيه « التربية العاطفية الأولى » (شباط ١٨٤٣) ، يرتبط ، في باريس ، بمكسيم دو كمب .

١٨٤٤ . كانون الثاني . أول صدمة عصبية ، لم تحدّد ، بوضوح ، طبياً . وضعت حداً لدروسه ولحياته الباريسيّة ، اضطرته للانسحاب إلى ملكية كرواسّيه قرب روّان ، وتدخله أو تثبّته هكذا في طبعه المنزوي .

١٨٤٥ . ١٧ كانون الثاني . أنهى « التربية العاطفية » ، كتابة أولى ، ولم تظهر سوى ثلاثين عاماً بعد وفاته .

نيسان ـ حزيران . رحلة في بروفانس ، في إيطاليا الشماليّة وفي سويسرا .

١٨٤٦ . ٢١ كانون الثاني . ولادة كارولين هامار ابنة أخت فلوبير التي تزوّجت أرنست كومّنفيل في ١٨٦٤ وإذ ترمّلت تزوّجت الدكتور فرانكلين ـ غرو . انهيار آل كومّنفيل سينقل على فلوبير في أواخر أيامه . وان ضياع أوراقه المحفوظة ، بعد موته ، على يد كارولين سيطلق المجال واسعاً لكثير من التقوّلات .

تموز : بداية علاقة فلوبير بلويز كوليه وقد التقاها الشهر الماضي . توقفت العلاقة في آب ١٨٤٨ ثم عادت بعد ثلاثة أعوام لتنتهي في ١٨٥٥ .

١٨٤٧ . أيار ـ آب : رحلة مع مكسيم دو كمب إلى أنجو فبريطانيا ونورماندي .

١٨٤٨ . ٢٤ أيار : يباشر فلوبير « تجربة القديس أنطوان »

(كتابة أولى) ، أنهاها في ١٢ أيلول ١٨٤٩ .

١٨٤٩ . ١٨٥١ . رحلة إلى الشرق مع مكسيم دوكمب . في ٢٩ تشرين الأول ١٨٤٩ : الانطلاق من باريس : مصر ، فلسطين ، سوريا ، لبنان ، آسيا الصغرى ، القسطنطينية ، اليونان ، إيطاليا . العودة في تموز ١٨٥١ .

١٨٥١ . أيلول : يباشر فلوبير « مدام بوفاري » ، رحلة إلى لندن . مراسلته مع لويز كوليه تنير جوانب نفيسة جداً ومعلومات مهمة عن عملية تكوّن الرواية ومذهبه الأدبي .

١٨٥٦ . ٣٠ نيسان . الفراغ من « مدام بوفاري » وقد ظهرت ، مع حذف ، في « مجلة باريس » ، من أوّل تشرين الأول إلى ١٥ كانون الأول .

نوّار - تشرين الأول . كتابة « تجربة القديس أنطوان » (كتابة ثانية) ، منها مقتطفات ظهرت في « الفنّان » في كانون الأول وكانون الثاني وشباط .

١٨٥٧ . كانون الثاني - شباط . دعوى جنحيّة على « مدام بوفاري » لانتهاكها ، قال ، حرمة الأخلاق العامة والدينية والتقاليد ، - بالرغم من الحذف القاسي من قبل المجلّة . ظهرت الرواية ، بعد التبرئة ، في المكتبات في نيسان .

أول أيلول . يباشر فلوبير « سلمبو » .

١٨٥٨ . نيسان ـ حزيران . رحلة إلى تونس والجزائر .

١٨٦٢ . ● نيسان . الفراغ من « سلمبو » ، وقد ظهرت في المكتبات في تشرين الثاني . بالرغم من الانتقادات ، فقد اشتهرت بسرعة ، ويكفّ فلوبير عن التسبّب بحياة الوحدة .

● حزيران . فلوبير ، وهو يحلم بـ « التربية العاطفية » وبـ « بوفار وبيكوشيه » ، يباشر ، بالمشاركة ، « قصر القلوب » ، (مسرحيّة جنّ) .

● كانون الثاني . يبدأ بحضور « عشاءات مانيي » ، وقد أسّسها ، الشهر المنصرم ، غافارني ، آل غونكور ، سانت بوف ، الخ . التقى فيها تورغنييف في شباط ١٨٦٣ .

١٨٦٣ . ٤ كانون الأول . الفراغ من « قصر القلوب » والتي لم تقدّم أبداً ، ولقد ظهرت في « الحياة المعاصرة » سنة ١٨٨٠ .

١٨٦٤ . أوّل أيلول يباشر فلوبير كتابة « التربية العاطفية » التي كان أوّلاً جمع وثائقيّتها وقرر تصميمها .

● تشرين الثاني : دُعي عند الامبراطور في « كومبيين » .

١٨٦٥ . تموز . رحلة إلى « بادن ـ باذن » .

١٨٦٦ . تموز . رحلة إلى انكلترا .

١٥ آب . جُعل فارساً في جيش الشرف .

١٨٦٩ . ١٦ أيار . إنهاء « التربية العاطفية » التي ظهرت في المكتبات في تشرين الثاني . خلال ذلك توفي بويلهيه ثم سانت ـ بوف .

١٨٧٠ . عمل فلوبير في كتابة ثالثة لـ « تجربة القديس أنطوان » التي ظهرت في المكتبات في نيسان ١٨٧٤ .

● آب . يباشر فلوبير « بوفار وبيكوشيه » ، كان بها يحلم من عشرين سنة .

١٨٧٣ . تموز ـ تشرين الثاني . تأليف « المرشَّح » ملهاة بأربعة فصول ، ولم تقدّم سوى بعض المرات في الفودفيل ـ آذار ١٨٧٤ ، وظهرت بعد ذلك بقليل في المكتبات .

١٨٧٤ . تموز . رحلة إلى سويسرا .

١٨٧٥ ـ ١٨٧٧ . كتب فلوبير « أسطورة القديس جوليان المضياف » ، « قلب ساذج » و « هيروديا » ، نشرها في دوريّات ثم جمعها في جزء واحد ، « قصص ثلاث » ظهرت في نيسان ١٨٧٧ . وأثناء ذلك ظل يتابع عمله في « بوفار وبيكوشيه » .

١٨٨٠ . ٨ نوّار . توفّي في « كرواسّيه » .

١٨٨٠ ـ ١٨٨١ . طبع « بوفار وبيكوشيه » في « المجلة الجديدة » بين كانون الأوّل وآذار ، ثم في المكتبات في آذار ١٨٨١ .

فهرست

 منشورات عويدات ٨٤٥/ ١٩٨٣



قناع جنّازي لفلوبير (متحف كارنافاليه)

Flaubert
Trois contes

Préface de Michel Tournier

Texte traduit en arabe
par

Hussein KAYILO

MARIANNE / OUEIDAT
Beyrouth



Gustave Flaubert Trois contes

